أحمد العسيلي

نُصّ كتاب

أُهدي هذا الكتاب إليكي، إليك..

عشان نخلص من المعضلة الشهيرة من أوّلها كده، ده كتاب «مسموع»؛ أنا بَكتب بالعامية، بلساني، حتى وإن اضطرّني ذلك أحيانا إلى كسر قواعد أساسية في اللغة العربية كسرا صريحا واضحا، بأن أرفع منصوبا أو أنصبَ مرفوعا كما يفعلونَ في بلدنا؛ وبَستعمل جنبًا إلى جنب مع الكلام المكسورة قواعده ده، كمان كلام عربي فصيح، اللي يعرفني وسمعني قبل كده أسهل عليه اكتشاف النقلات، وغير كده برجاء الاهتمام بالتشكيل.

(ونصيحة شخصية حتى تكتمل التجربة، اقرا إن أمكن بصوت، حتى وإن كانت تمتمة خافتة، لو قريت بصوت حتسمعني، فحيبقى عندي فرصة أكبر أوصلّك).

المحتويات

مقدمة ١١

عن الكتاب ١٧

عن المنطق والفلسفة ١٩

الإنسان الفيلسوف ٢٧

أم العلوم ٤٣

عن دين الفلسفة وفلسفة الدين ٥١

عن الفلسفة الإسلامية ٦٥

البداية ٧٩

سقراط ٨٩

القاضي الفيلسوف ٩٥

أفلاطون ١٠٣

الكهف ١١٥

أرسطو ١١٩
خاتمة ١٣٥
مش النهاية ١٤٣
عن المؤلّف ١٤٥
مراجع ١٤٧

العلـم واضح فـي علاقته بالحياة، علاقتهم مباشـرة عشـان كده بيمشـوا جنـب بعـض؛ لكـن مـش شـرط ده يحصـل مع الفلسـفة، الفلسـفة هـي اللي دايما تفتح الطريق آه، لكـن أول ما يتفتح، ممكن انت تسيبها وتمشي لوحدك.

أنظمة السياسة والاقتصاد مثلا اللي بيدار بيها العالم من شيوعية لاشـتراكية لرأسـمالية للديمقراطيـة نفسـها هي منتجات فلسـفية، بتخلقهـم الفلسـفة وبعديـن بتسـيبهم لمصائرهم. يدخّـل البني آدم بقـه بفضولـه وذكاؤه ودهـاؤه ونبلُه وسـوء نيتـه يلعب فـي الفكرة، ويطبّقها بالطريقة اللي يشـوفها ويفهمها وتليق على ظروفه وأفكاره و«غرضـه». وسـهل جدا يبعد عن الفلسـفة الأصلية اللـي بدأ منها، أو اللي هو فاكر إنه ماشي في ضلّها لا يحيد عنها، ويستبدلها بفلسفة مختلفة تماما وهو مش واخد باله (أو وهو واخد).

طبعا من أسباب ده إن العالم مكان جَد، دايما فيه حاجة بتحصل، مابيقفش يستنى حد؛ الفلسفة محتاجة وقت تتبني فيه، تتفرج وتنظّر وتجـرّب وتراقب لكـن العالَم مش رايـق كده، السياسـة مش رايقة والاقتصـاد مـش رايق، دايمـا فيه مليـون حاجة بتحصـل، دايما فيه مليـارات الناس عايـزة تاكل وتشـرب وتلبس، دايما فيـه صراعات بيـن القـوى، دايمـا فيه فقـر، دايما فيه بلطجـة، فَالوقت والمسـاحة الضروريين للتفلسف سهل مايلاقوش مكان في وسط كل ده.

والفلسـفة اللـي سـهل ماتلاقيـش مـكان دي هـي أصـلا اللـي بيسـتخدمها البني آدم عشـان يعرف هو حيتصرّف إزاي، حيعمل إيه

ومش حيعمل إيه، حيبني دولة شكلها إيه، حيلعب سياسة إزاي، حيمشّي الاقتصاد ويوزّع الثروة بأنهي طريقة، والطرق اللي يعرفها دي تنفع ولّا لازم يخترع طرق جديدة، وهكذا. والحياة مابتُقَفش مكانها لحد ما حضرتك يا فيلسوف تخلّص مذاكرة عشان تبقى متأكد إنك على الطريق الصح، الواقع لا يمهل حد إنه يخلّص تفكير، التفكير بيحصل وانت ماشي، النظرية بتبدأ تتطبّق قبل ما تخلص، وساعات بقه لما الظروف تسمح ويبقى فيه ناس عندهم القدرة إنهم يغيّروا وأصلا عايزين يغيّروا بتبدأ محاولة الإصلاح. المهم يعني إننا نفهم إن الوقوع في الأخطاء شيء «طبيعي» زيادة عن اللزوم، وده أصلا أصلا بعيدا عن سوء النوايا خلوا بالكو، المقصود هنا هي الأخطاء الغير مقصودة، الأخطاء اللي سببها إننا لسه مافهمناش، مالاقيناش «أحسن طريقة».

أنا بَشوف السياسة والاقتصاد في أغلب العالم ماشيين بسرعة أبطأ مما ينبغي، عشان كده بعد كل آلاف السنين دي تلاقي جرائم بدائية لسه بتُرتكب وبغزارة، عشان كده فيه في العالم بعد كل التجارب دي، بعد كل التاريخ ده، بعد كل التعلُّم ده، سمنة وجوع في نفس اللحظة، على نفس الكوكب! عشان كده فيه مجلس أمن وفيه فيتو يضرب بقرارات مجلس الأمن الحائط في نفس القاعة! عشان كده فيه ديمقراطيات «مستبدّة»، عشان كده فيه إسرائيل بتقتل أطفال في فلسطين وتقدم حجج العالم يقبلها، عشان كده فيه في اللحظة دي من تاريخ البشرية مجاهدين بيقتلوا أهلهم عشان يعملوا «دولة إسلامية»، عشان كده فيه حروب أهلية لحد اللحظة

دي من تاريخ الأرض. عشان كده لسه فيه تطرّف بل لسه فيه تجارة بشر في نفس العالم اللي فيه الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي والديمقراطيات الكبيرة. عشان كده بعد كل ذلك التاريخ تجارة السلاح هي أكبر تجارة في العالم، والأمثلة كتيرة جدا بقه للي عايز يتأمل ويطلّع الباقي، للّي عايز يتأكد إن العالم بيعمل حاجة غلط، جامد يعني.

أنا بَتصوّر العالم بيتحرك بسرعة جدا بس من غير فرامل، والقوة والسرعة من غير قدرة على التحكم فيهم مأساة، واللي بيعلّم البني آدم إزاي يتحكم في كل حاجة هي الفلسفة، عشان كده خطر كبير لما الفلسفة تمشي بسرعة أبطأ من السرعة اللي ماشية بيها الحياة.

الثورات العربية الأخيرة بغض النظر عن كل التفاصيل يعني قامت أصلا على أنظمة عتيقة ثابتة في الأرض بقالها عقود بفضل السرعة اللي ماشية بيها التكنولوجيا، الإنترنت والفضائيات كانوا في رأيي أهم مكوّن من مكوّنات الثورات دي؛ الأنظمة الحمقاء اللي كانت بتحكمهم وقعت لإنها مشيت بسرعة أبطأ من سرعة الناس، أبطأ من سرعة الحياة، بفلسفة عتيقة بالية غبية، أو بلا فلسفة إطلاقا في الحقيقة.

غرضي بدأ يوضح أعتقد، أنا شخصيا في العالم جديد اللي البني آدم فيه اتغيّر وبيتغيّر كل يوم، عايز شكل جديد للدولة، شكل جديد للديمقراطية، شكل جديد للتعليم، طريقة جديدة في الحكم،

طريقـة جديدة في محاولـة تحقيق أحلام النـاس، طريقة جديدة في السـعي ورا النجاح. ماعنديش الطريقة دي جاهزة كده حطلّعها من الـدرج وادّيهالكو، بس انـا بَكتب وبَتكلم زي ما اكون بوَسوسْـلُكو كده، في محاولة إني ألهمكو تلاقوها معايا.

أتمنى لهذا الكتاب إنه يساعدكو تلاقوها، أتمنى لهذا الكتاب أن ينفعَ المستقبل.

دراسـة التاريخ ضروريـة لفهم الحاضـر، وفهم الحاضر ضروري للاستعداد للمستقبل.

الكتـاب ده مـش عـن التاريـخ، الكتـاب ده عـن صانعـة التاريـخ، عـن صانعـة حضـارة بنـي آدم علـى الأرض؛ عن الفلسفة.

تُمكّنها من الوصول، تمكّنها من الوصول للحقيقة، وتمكّنها من الوصول كمان للحق والعدل والخير والجمال... إلخ، حتى النجاح مستحيل توصلّه من غير فلسفة؛ كل نجاح كبير عظيم مهم مؤثر لازم يبقى عنده فلسفة، وإلا حيحصل ازاي؟ حيغيَّر الاتجاه ازاي؟ حيتبني على إيه؟

الفلسفة هي اللي بيستعملها البني آدم عشان يحط المبادئ الحاكمة دي (اللي بتتبني فوقها بعدين الأخلاق). فمبدئيا كده المبدأ اللي من غير فلسفة هو خارج منها، يبقى مبدأ عبيط علطول، زي مثلا إنك تقول: أنا مبدئي إني ماكُلش ملوخية، ده مش مبدأ لإنه مش مبني على فلسفة، ومالوش علاقة بالأخلاق، لكن لو قلت أنا ماباكلش حيوانات عشان بيصعبوا عليا إننا ندبحهم وناكلهم، يبقى ده مبدأ أهه، عشان مبني على فلسفة، على وجهة نظر، على مجموعة مفاهيم. طيب أنا ماباكلش خنزير عشان مابحبوش أو بَقرَف منّه، ده موضوع مش مبادِئي، لكن ماباكلش خنزير عشان أنا مسلم، ده تصرّف مبني على مبدأ ديني، وهكذا.

بعد ما تبني منظومة المبادئ بتاعتك (والكلام ده يسري على الفرد زي المجتمع)؛ ييجي بقه الدور على الأخلاق، أخلاقك لازم تبقى ترجمة لمبادئك، أي خُلُق مش مبني على مبدأ يبقى برضه موضوع لوحده، أنا بَبتسم في وش الناس عشان أنا خلقتي كده ده مش مبدأ؛ أنا بَبتسم في وش الناس عشان الابتسام فضيلة بينشر السعادة والمحبة، ده مبدأ؛ أنا بَبتسم في وش الناس عشان «تبسُّمكَ

في وجه أخيك صدقة»، مبدأ برضه؛ (مبدأ نفعي صحيح لو اتعمل وهو ده غرضك الوحيد منه، من غير ما تبص على أثره على اللي بتبتسم في وشّهم دول لكنّه مبدأ). بيَنتُج منه خير مش غرضه الناس بل غرضه نفسك صحيح، بس مبدأ مبني عليه التصرف اللي انت بتعمله.

اللي ماعندوش مبادئ بقه مش محتاج يتفلسف قبل ما يتصرّف خلي بالك، ولا بعد ما يتصرّف؛ بيحاول ياخد اللي هو عايزه وخلاص ومالوش دعوة بإيه حيحصل، مالوش دعوة مين حيتضر، مالوش دعوة خالص بأثر أفعاله على العالم، مالوش دعوة غير باللي هو عايزه. ممكن تتصوّر إن ده نفسه مبدأ لكنه مش كده، دي أنانية، نفعية، قصر نظر، أي حاجة، المبدأ لازم يبقى عنده غاية «أخلاقية». فأصلا اللي بيخلق الحاجة للنوع ده من التفلسف هو أن يبقى عندك مبادئ أخلاقية عايز تتأكد دايما إنك محافظ عليها.

ناس مصريين مثلا في اللحظة دي من التاريخ بالذات، في نفس الحالة اللي احنا فيها دي، لو سألت واحد مابيدفعش ضرايب، تسأله: ليه مابتدفعش الضرايب «اللي عليك»؟ يقولّك: عشان هي فين الخدمات اللي انا باخدها؟ إنت مش شايف الشوارع عاملة ازاي؟ وبعدين الفلوس دي كلها بتتسرق، فلسفة أهه، بس فلسفة غرضها النفع الشخصي، ومافيش مبادئ حاكمة ليها، وماعندهاش أغراض أخلاقية، تبقى مش فلسفة المبادئ اللي بنتكلّم عنها (مع إنها بتستعمل المنطق اللي لسه كل ده الدور ماجاش في الكلام عنه☺).

اللـي بيدفع ضرايب بقه تسـأله إنـت بتدفع ضرايب ليـه؟ يقولك أنا مش عاجباني خالص الطريقة اللي بتتصرف بيها الضرايب وشـايف إننـا عالأقـل فلوسـنا بتتبـدّد لكن أنـا ماقـدرش أعمل تصـرّف غير أخلاقـي زي انـي أزوّغ مـن الضرايب، فـي الضرايب اللـي بَدفعها حقوق للفقراء، وهي فلوس الدولة محتاجاها عشـان تفضل ماشـية فأنـا حَدفع اللي عليا والنتيجة مش شـغلتي؛ بيتصرّف بناءً على مبدأ أهـه. واحد تاني يقـول أنا بَدفع ضرايب بالرغم من إسـاءة التصرّف فيها، عشان عدم دفع الضرايب تهرّب وكسر للقانون، وانا ماكسرش قانـون لإني مؤمن بفايدته وجدواه في كل الأحوال، مبدأ أهه كمان، أنا بَدفع ضرايب وانا عارف ان بيُسـاء اسـتعمالها وشـغلتي أنا وبقية الناس إننا نفضل نحارب عشـان تُستخدم بشكل أحسن ينفع الناس أكتـر، مبدأ أهه كمان. وبالتفلسـف بقه تقعد تحـاول تعرف مين في التلاتـة اللـي بيدفعـوا ضرايب دول بيتصـرّف بطريقة أكثـر أخلاقية مثـلا، مين فيهم صـح أكتر من التاني، ولّا هـم صَحّات مختلفة بس متسـاوية بمـا ان النتيجـة من وراهم كلهـم واحـدة، إن كلّهم دفعوا الضرايب، ولّا هم مختلفين عشـان ده الدافـع بتاعه أخلاقي مبادئي شـخصي، والتاني الدافـع بتاعه نفـع الجماعة كلّهـا والحفاظ على حقوق الفقراء، ولّا التالت أرقى منهم هم الاتنين على سلم المبادئ الأخلاقية عشان كمان فلسفته بتتضمّن إنه يكافح ويحارب ويحاول يخلّـي بلده أحسـن، فيبقـى ده أكثر أخلاقيـة من اللي قبلـه، وهكذا الفلسفة بتقيس ما لا يمكن قياسه بغيرها.

باستعمال إيه أهم حاجة، المنطق؛ يبقى أول وأهم حاجة نعرفها عن علاقة الفلسفة بالمنطق هي إن أي فلسفة مش مبنية على منطق سليم، واحد زائد واحد يساوي اتنين، تبقى فلسفة فارغة لا قيمة لها، أنا مش حَدفع ضرايب عشان مادخلتش الجامعة، عشان التلاجة بايظة، عشان الدنيا حر، أي حاجة بلا منطق.

طيب معضلة المنطق بقه اللي لازم تاخد بالك منها كويس جدا وانت بتقترب من الفلسفة إن المنطق ممكن يخدعك، زي مثلا في حالة أنا مابدفعش ضرايب عشان الفلوس بتتسرق؛ لو عملنا شوية رياضة عقلية على المبدأ ده حنلاقي أولا إنك ماتعرفش قد إيه فلوس بتتسرق، وفرضيتك إن كل الفلوس اللي انت بتدفعها كضرايب حتتسرق وماحدش حيستفيد منها دي فرضية غير منطقية. ثانيا هو فيه فلوس بتتسرق أو بتتبدد أو بيُساء استعمالها في حالة زي حالتنا دي؟ آه طبعا، لكن ده موضوع تاني غير إنك تدفع ضرايبك، تدفع ضرايب دي حاجة وتحارب الفساد اللي بيقلل جدوى الفلوس دي ده موضوع تاني. ثالثا بقه إنك حتى لو اشتكيت من نوع الخدمات اللي بتتقدّملك فانت بتحصُل على خدمات، وعايز أحسن طول الوقت؛ مش عاجبك الأسفلت بس بتمشي في الشارع، مش عاجبك البوليس بس فيه بوليس، مش عاجباك المستشفيات لكن فيه مستشفيات، وكل ده بيتعمل بفلوس الضرايب اللي انت نفسك بتستفيد منها حتى لو مادفعتهاش. يبقى لو قلت انا مابدفعش ضرايب عشان الضرايب بتتسرق تبقى بتستعمل أدوات منطقية

عشـان تبرّر فعل غيـر منطقي (ده زائد يعني إنه غيـر أخلاقي). تبقى وقعـت في حفرة كبيرة جدا، ولا انـت محصّل اللي ماعندوش مبدأ ومابيستعملش أي منطق، ولا انت طبعا تقدر تحصّل صاحب المبدأ المنطقي الأخلاقي المفيد للناس.

وهنا فيه معضلة كبيرة بتظهر؛ لو كل شـخص لازم يبقى ماسـك ميـزان المنطـق في إيـده في كل الأوقات وهو بيطلّع فلسـفة لنفسـه تخـص أي موضوع فـي الدنيا، لو منطقه باظ فلسـفته حتبقى بايظة، والمعضلـة انه مش حيبقى عـارف أصلا! زي كده إنـك ترمي زبالة في الشارع طول ما انت ماشي ومع ذلك تبقى مقتنع تماما إنك عايز البلد تبقى نضيفة ☺ منطق فاسـد أهه، أنتج فلسـفة فاسـدة، اسـمها «هي جت عليا انا؟!»، فلسـفة فاسـدة أهه، فلسفة فاسدة بيعتقد فيها عشـرات ملايين الناس، إنت نفسـك لامؤاخذة يعنـي ممكن تكون منهـم. زي الموظـف المرتشـي اللي عنـده زبيبة صـلاة، زي رجل الدين الشـتّام اللعّان الكاره لكل الناس، زي الإرهاب «الإسلامي»، زي كل اللـي بيسـوقوا عربيـات وموتسـيكلات دول ومابينـوّروش النور ولو سألته حيقولك عشان ماضايقش اللي قدامي! (اللي قدامه ده اللـي هو حيكسـر عليه حـالا أهه أول مـا يعدّيه!) وكتيـر بقه من ده آلاف الأمثلـة كل واحـد فيكـو يعرف يفكر في شـوية منها (حتى لو لقى نفسـه بيعمل نفس التصرّف اللي منطقه فاسد ففلسفته فاسدة فكله فاسد ده).

أنا معتقد إن المنطق بيفسد لما العقل يتعوّد إنه يقتنع بثوابت غير منطقية؛ عشان رجل الدين قالها فهي «مقدسة»، عشان مكتوبة في كتاب القراءة، عشان المدرّس قالها، الأم والأب قالوها، الناس كلّها بتعملها... إلخ إلخ، فيتعوّد العقل إن واحد زائد واحد مايساووش اتنين ولا حاجة، فيطلع ده بقه في كل صورة ممكنة؛ في طرق تربية الأطفال، في عمل جهاز الدولة، في القوانين، في طريقة السواقة، في الثورة، في الاختيارات السياسية، في تصديق ناس نصابين أو جهلة وعملهم «نجوم المجتمع»، في انتخاب ناس مجانين لقيادة الدولة أو لسَن قوانينها في البرلمان، في اللي بيعاكس واحدة فبيشتمها، في الرصيف اللي ارتفاعه نص متر، في تجريف الأرض الزراعية، في حرق قش الرز، في ختان البنات، في كلبشة العربية اللي راكنة صف تاني، في مليون حاجة؛ كل دي مشاكل منطق فاسد، بتتبني فوقه فلسفة فاسدة، فتطلع منها كل الأفعال «الغير منطقية» دي.

ده زائد بقه كمان إن لما المنطق والفلسفة الاتنين يبوظوا، الضمير شخصيا مستحيل يستقيم، ما همّ دول اللي انت بتقيس بيهم أخلاقية أفعالك، لو باظ الميزان اللي بتقيس بيه حتقيس الصح والغلط بإيه! ولو أي مجتمع بحاله كده مابقاش بيقيس الصح والغلط حيحصل فيه إيه؟

طيب إزاي بقه تقدر تقنع شخص ما «بالمنطق»، إن منطقه فاسد فبيوصّله لنتائج مزيّفة وغير منطقية وبيخلّيه يرتكب أفعال مجنونة وغير منطقية؟! إزاي وهو أصلا أساسا حيحكم على كلامك ده

بمنطقه هو برضه؟! دي معضلة كبيرة مالهاش غير حل واحد، إن المنطق السليم ينتصر؛ ينتصر بقه بالديمقراطية لما الأغلبية منطقها يبقى سليم، ينتصر بإن الدولة تبقى عندها فلسفة «منطقية» فتبدأ تصلّح أخطاء المنطق اللي بالملايين دي لحد ما الميزان يتعدل تاني في عقول الناس، المهم إن لازم تحصل ثورة «منطق». لازم كلّنا نفهم إن طول ما اللامنطق منتشر كده مافيش حاجة حتتغير، مستحيل.

ولو حد بقه عايز يبدأ الثورة دي حالا من عند نفسه، أول وأهم حاجة لازم تتعمل في تصوّري، هي تقديس فكرة قياس الأثر بتاع أي فعل في الدنيا، أي فكرة في الدنيا وجعل ده هو الحكم عليها، على جدواها وفايدتها، على صحّها من غلطها؛ لو كل الناس عملوا كده حيحصل إيه؟ لو كل الناس فكروا كده حيحصل إيه؟ لما بنعمل كده أو كده النتيجة «المنطقية» حتبقى إيه؟ هو ده اللي انا عايزه ولّا انا عايز حاجة تانية؟ لو ده اللي انت عايزه يبقى تعمله، لو النتيجة مش هي اللي انت عايزه يبقى لازم تغيّر اللي انت بتعمله، سهلة.

قياس التأثير والأثر والنتيجة ومقارنتهم بأسبابهم هو حجر أساس التفكير المنطقي، لما بَعمل كذا (ده واحد)، وفيه أصلا كذا (ده الواحد التاني) النتيجة بتبقى اتنين، مجموع واحد على واحد. عشان كده أينشتاين العبقري قال في تعريف الجنون، هو إنك تفضل تتصرّف بنفس الطريقة وتتوقع نتيجة مختلفة. تتصرّف من غير ما تحسب النتيجة والأثر والتأثير فتبقى شخص، إنسان، بني آدم، مابتستعملش أهم وأكبر نِعَم ربنا عليك: منطقك، عقلك.

الإنسان الفيلسوف

بَحِب تسمية الإنسان بإنّه أصلا الكائن الفيلسوف؛ الشجر والحيوان والجماد مايعرفوش الفلسفة، إنما ابن آدم صاحب العقل والمنطق ووجهة النظر والضمير، هو كائن أصلا أساسا فيلسوف. لكن الحياة بقه مُلهية زي ما انتو أكيد ملاحظين ☺ شغل ومذاكرة وتخطيط وحاجات الواحد عايزها وحاجات الواحد خايف منها وأحلام وإحباطات وأكل عيش ومُرّ كمان! زحمة جدا الحياة. فأغلب البشر بسبب طبيعة الدنيا بيتلخموا فيها، فبيبعدوا عن طبيعتهم الأصلا أساسا فلسفية دي وبيعيشوا وخلاص.

بني آدم بيتكلّموا من أول التاريخ عن العدل والمساواة والحرية والمواضيع الكبيرة الشبيهة، بس في الحقيقة أغلب البشر بيذكروا الكلمات دي بس من غير ما يتعمّقوا بالتفكير في معانيها. ممكن بسهولة تتصوّر انك عارف يعني إيه عدل وحرية وخير وأخلاق وغيره؛ كلمة من هنا على كلمة من هناك، حاجة قريتها هنا على

حاجة قريتها هناك، على شوية فكاكة كده وخلاص بتحس إنّك عارف دول إيه؛ وبعدين تلاقي الفيلسوف هو اللي بيسأل بقه؛ هو يعني عدل فعلا؟ إزاي يتحقق العدل ده على كل الناس الكتير المختلفين أوي عن بعض دول، اللي احتياجاتهم مختلفة وثقافاتهم مختلفة، وفهمهم لحقوقهم مختلف؟ إيه الحرية دي؟ نوصلّها ازّاي؟ نرسم حدودها ازاي؟ ونرسم حدودها من غير ما نظلم حد عشان ماتتعارضش الحرية مع العدل ازاي؟ ونعمل مساواة في الحرية ازاي؟ وآلاف الأسئلة من نفس النوع ده، «فلسفة». الفلسفة محاولة للمعرفة الحقيقية، المعرفة اللي بتتعدى القشرة وبتسعى للوصول إلى قلب الأشياء، لو قررت ماتبقاش فيلسوف عمرك ما بتوصل للقلب.

محاولة المعرفة الحقيقية هي المكوّن الأصلي للإنسان الفيلسوف «مش حبُص عالحاجات من برة كده وخلاص، مش حاخد أي حاجة زي ما بيشرّبهالي المجتمع وخلاص، مش حشتري الإجابات الجاهزة المعلّبة اللي بيشُرّ منها اليقين والموجودة بوفرة عند أغلب سكان الكوكب وخلاص؛ حدوّر على إجاباتي بنفسي، حتّى لو مش انا اللي طلعت بالإجابة ولقيتها عند غيري، برضه أنا اللي حدوّر بنفسي».

بتبدأ الفلسفة عند التساؤل في محاولة للوصول لحقيقة الأشياء ومالهاش نهاية، مافيش حدود للفلسفة. كل ما كان تفكير الفيلسوف أعمق، كل ما بقى «ممكن» يوصل لمناطق أبعد. كل ما زادت

الأسئلة وتنوّعت وتطوّرت مع الزمن، كل ما بقت الممكنات أكتر، وكل ما زادت قدرة الفيلسوف على فهم الحياة كلها بشكل أحسن. الفلسفة شغلتها إنها تدّي صاحبها «perspective» منظور، يخلّيه يشوف كل حاجة في مكانها المناسب، بحجمها المناسب.

التفلسف هو العكس الصريح لإنك تبقى عايز تلاقي إجابة لسؤال عشان تخلص؛ مابتخلّصش. بعد ما يعرف الفيلسوف أي حاجة لسه بيتساءل: هو اللي أنا عارفه ده مكتمل ولّا لأ؟ أعرف ازاي؟ أتأكّد ازاي؟ طب أتأكد تاني ازاي؟ طب هو أصلًا فيه أي حاجة أكيدة ولّا لأ؟ زي إيه؟ طب الحاجات الأكيدة ممكن تتغير ولّا الأكيد مابيتغيّرش؟ طب لو الأكيد بيتغير، قبل بقه ما يتغير ينفع نسمّيه أكيد ولّا لأ؟ طب نعرف ازاي الفرق بين الأكيد واللي مش أكيد؟ وهكذا، عمره مابيقف.

عشان كده الفلسفة كمان بتتطلّب أمانة، أمانة مع النفس قبل الناس؛ الفيلسوف اللي بجد مابيضحكش على نفسه، ومابيعدّيش حاجة ويعمل نفسه مش شايفها، ومابيعملش نفسه عارف وهو مش عارف، ومابيعملش نفسه وصل وهو ماوصلش، الفيلسوف اللي بُضبط متلبّسا بأيٍّ مما سبق فيلسوف مضروب، إنسان ناقصه أهم ما يَقدِر عليه، إنه يبقى فيلسوف.

رجال القانون بيتكلّموا دايما عن العدل، العدل شغلتهم، بيمتهنوا العدل؛ لكن لما محامي أو قاضي يفكر مثلا هو العدل ده

مطلق ولّا نسبي؟ إيه علاقة العدل بالمصلحة العامة؟ لو الجماعة ممكن تظلم الفرد عشان مصلحة الأغلبية ده عدل ولّا مش عدل؟ إلخ إلخ، في اللحظة دي الشخص ده «الفيلسوف ده» مابيبقاش رجل قانون وخلاص، بل بيبدأ يدوّر ويفكّر في فلسفة القانون، فلسفة العدل. الدكتور بيعالج الناس، لكن لما دكتور يبدأ مثلا يفكر في أخلاقية إنه يجرّب على عيّان دوا جديد هو مش متأكد حيشتغل معاه ولّا لأ، لو فكّر في أخلاقية موضوع زي تأجير الأرحام أو الاستنساخ أو هكذا، مثلا يعني، يبقى الدكتور ده بدأ يفكّر في فلسفة الطب، وهكذا. لكل مجال ولكل مهنة في الدنيا فلسفة، واللي بيحاولوا استكشاف الفلسفة دي وفهمها، هُم في الغالب أحسن من يمارس تلك المهنة، لإنه مش بيشتغل الشغلانة من برة كده وخلاص لأ بيفكر فيها، في تأثيرها، بيُدخل جوّاها، فبتدخل هي كمان جوّاه. ولما تفكّروا في الكلام ده كويّس حتلاقوه بينطبق على كل الناس، من أول الفرّاش والنجار والميكانيكي للمطرب للسياسي للإعلامي للكاتب لرجل الدين لكل الناس؛ كل ما تعدّيت قشرة مهنتك وحاولت توصل لقلبها، حتعملها مش زي أي حد تاني. ولو وسّعنا الدايرة دي جدا نبدأ نفكّر في إن للحياة كلّها أيضًا فلسفة، واللي بيستكشفوا الفلسفة دي وبيفكّروا فيها عشان يحاولوا يبقالهم فلسفة في حياتهم، بيعيشوا حياة أحسن وأرقى وأكثر قيمة وأحسن في نوعها بكتير من غيرهم، لإنها بتبقى بتاعتهم همّ، همّ

اللي حطوا قواعدها، همّ اللي سألوا وهمّ اللي دوّروا على إجابات؛ «همّ اللي لوّنوا حياتهم بألوان من اختيارهم».

الفلسفة مش شغلتها تجاوب على الأسئلة المحيّرة، بل أعمق من كده بكتير، شغلتها تثير الأسئلة؛ عن طريقة تفكير البني آدم، عن طريقة تحليله للأمور؛ هي مش نشاط عبثي غرضه نفسه، الفلسفة حاجة مختلفة جدا عن الفذلكة، الفلسفة مش غرضها الفلسفة بل غرضها الفهم. بمساعدة الفلسفة بيفهم البني آدم إزاي يقترب من مشاكله عشان يقدر يحلّها، إزاي يفكّر أصلًا. إزاي يفرّق بين اليقين والاعتقاد، بين الحقيقة والحقيقة اللي يعرفها، بين الصح واللي جاي على مزاجه، بين ما هو أخلاقي وما هو مصلحجي، بين كل الحاجات الكتير أوي اللي بسهولة بتبدو متشابهة دي. الفلسفة بتوسّع الخيال، بتزوّد إمكانيات العقل، وبتعمل عمايل بقه في الضمير كما لا تَقدِر أي حاجة تانية.

ولو الفلسفة بتعمل كل ده يبقى لو انعدمت الفلسفة من المجتمع، لو بقت الأفكار من غير أسئلة، من غير محاولة إجابة، من غير غطاء فلسفي، قاعدة فلسفية مبنية عليها، من غير مبادئ فلسفية تحكمها وتوجّهها، النتيجة بتبقى حاجة كلكو تعرفوها كويس؛ مجتمع مليانة سَمَاه بأصوات مزعجة، كل واحد بيقول اللي على مزاجه وخلاص، مش مهم الصح من الغلط، مش مهم نفكر في تأثير كلامنا، مش مهم نفكر يعني إيه اللي بنقوله؛ أنا عايز دولة إسلامية، الجيش هو الوحيد اللي يعرف يمسك البلد دي، الإخوان لازم يتحرقوا كلّهم،

مافيش حاجة اسمها حقوق إنسان، فين أيام حسني مبارك، الشعب المصري حويط وعارف كل حاجة بس مدكّن.. وكتير كتير من ده وغيره، كلام فارغ من المضمون والعقل «والفلسفة».

لما تختفي الفلسفة من المجتمع تتحول أفكار المجتمع ده لفوضى فكرية، أو حتى فوضى بس من غير فكرية ولا حاجة، الأفكار السليمة المفيدة مابتقدرش تعيش من غير فلسفة تحضنها وترعاها وتراقب تطوّرها بإنها تفضل دايما بتقيس أثرها وتأثيرها ونتايجها.

طريق الحكمة

كلمة فلسفة أصلا مشتقة من اليونانية «فيلو سوفيا» حب الحكمة، مش الحكمة نفسها، حب الحكمة بس؛ فَالحكمة غاية الكائن الفيلسوف، لكن للأسف مش معنى كده إن كل إنسان «فيلسوف بالفطرة» بيدوّر على الحكمة، ده غير يعني إن الحكمة مش سهلة المنال، مش كل اللي يحاول يوصلّها بيوصل. بس اللي بيحاول، بيحقق مبدئيا نبوءة إنه ابن آدم، بيبقى «فيلسوف».

طب لو البني آدم أصلا فيلسوف بالفطرة، عايز الحكمة بالفطرة، إيه اللي بيحصل في الدنيا ده؟ الشر ده كلّه والظلم ده كلّه وانعدام الحكمة ده كلّه بييجوا منين؟! بييجوا من إنك تبعد عن طبيعتك: ربنا ادّاك عقل عشان تسأل بيه وتجاوب، لما ماتستعملوش بيبوظ، لما تستعمله في الحفظ بس بيبوظ برضه (مش بس الحفظ في المدارس ها، كل الحفظ، كل الحاجات اللي بتاخدها من موروثك

الثقافي ومن المجتمع حواليك زي ما هي كده من غير ما يبقالك «دور انت خالص في الموضوع، حفظ برضه». ربنا ادّاك ضمير عشان تدوّر بيه عالصح، لما تحطه في الدولاب وتدوّر عالأسهل والأصيع والأسرع بيبوظ، وهكذا، كل ما تبعد عن طبيعتك كل ما حتبوظ. يبقى الأصل إنك فيلسوف، بس لو عايز تبوظ حتبوظ عادي، ماحدش حيمسكك، ومافيش حاجة حتحميك.

الحكمة كمان هي الوجه الجميل للفلسفة لكن للفلسفة أوجُه قبيحة؛ ما النازية مثلا فلسفة؛ أنا (الجنس الآري) أحسن من بقية الناس، عِرقي أحسن، فيبقى المنطقي إن أنا اللي أحكم بقية الناس، ما أنا أحسن منهم! اليهود بقه والغجر والسود دول تسميهم «Untermenschen».

«Menschen» يعني ناس بالألماني، جمع إنسان، دول أقل من الإنسان، نطلّع قانون أن يُمنع الجواز منهم، وبعدين نقول لأ مش كفاية احنا نخلص منهم خالص، نقتلهم. وده مش عشانّا إحنا بس على فكرة، ده لمصلحة البشرية! إننا نُبقي على الجنس الآري من غير ما «يتوسّخ» ببقية الأجناس ده لمصلحة الكل، إننا ننضّف الأرض من الأجناس الحقيرة دي خدمة للبشرية. فلسفة كاملة أهه. لكن فاكرين كلامنا عن المنطق الفاسد؟ راقب بقه كم الأخطاء اللي وقع فيها كل شخص اعتنق «فلسفة» النازية أول ما صدّق كلام مش منطقي عن إنّه «الجنس الأحسن»، كلام مش منطقي بنى فلسفة مش منطقية أدّت إلى جنون وحرب عالمية مات فيها ملايين البشر

واتدمر فيها جزء كبير من تراث العالم «المتقدم». وده مثال بس طبعا، الإخوة في داعش عندهم فلسفة برضه، وإيه، فلسفة بيدّعوا ومقتنعين تماما إنها إسلامية!

فيبقى أهم سؤال لازم أي فلسفة تجاوب عليه الأول وقبل كل حاجة عشان تعرف تقيّمها، هو ليه؟ الغرض من وراها. عايز إيه؟ بتسأل ليه؟ عايز تعمل كذا أو كذا عشان غرضك توصل لإيه؟ العدل والحق والخير والجمال، فيبقى غرضك «الحكمة»، ولّا أي حاجة تانية فيبقى غرضك أي حاجة تانية؟

فمن غير غرض سليم تَفسَد الفلسفة، واتفقنا خلاص إن من غير منطق سليم تَفسَد الفلسفة برضه، ومانناش بالمرّة إن بعد دول لزمًا وحتما ولا بد الكائن الفيلسوف يبقى بيدوّر عالمعرفة الحقيقية، لازم يبقى عايز يعرف حقيقة المسائل اللي بيفكر فيها، ماينفعش يبقى عايز يسد خانة بأي كلام يقدر يبلّعه لضميره، لازم يبقى عايز الحقيقة بنفسها، لإنه عايز الحق نفسه، الخير نفسه، العدل نفسه، الحكمة نفسها.

وبعد بقه ما تتحقق كل الشروط دي؛ سلامة المنطق والنية، والإخلاص في الوصول للحقيقة، للحكمة، للصح (مش اللي عالمزاج والهوى)، بقيت كده بتتكلم عن كائن إنسان فيلسوف. حيوصل لفين الفيلسوف ده بقه من درجات الحكمة، ده موضوع يرجع لرجاحة العقل، والقدرة على التعلّم والربط بين الأشياء،

والفروق الفردية المختلفة بين الناس «الفلاسفة». لكن من غير دول مافيش فيلسوف. فيه ناس بياكلوا ويشربوا ويقولوا ويعملوا اللي بيجي على مزاجهم وخلاص، من غير فلسفة، وبالتالي من غير أدنى فرصة للوصول لأكبر غايات ابن آدم؛ الحكمة.

الحكمة صفة تطلق على الفرد في الغالب، لكن كمان المجتمعات على بعضها كده تقبل إنها توصف بالحكمة، أو إنها توصف بالحماقة والجنون!

من إن الناس معادن

قبل ما نوصل لأفلاطون[1]، في السياق ده كان عنده تصوّر كده أعتقد محتاجين نعدي عليه دلوقتي. «وهو بيتفلسف» قسّم أفلاطون الناس لأربع أنواع، أربع معادن؛ الحديد هو كل اللي بيجري على أكل عيشه عشان يعيش هو وعياله؛ البرونز هو اللي همّه مجموعة من الناس هُم قومه، قبيلته، عشيرته... إلخ وبتدور حواليهم حياته. الفضة هو المهموم بكل المجتمع، بكل الوطن، بكل من فيه. والناس الذهب هم المهمومين بكل الناس في كل الدنيا، بالبشرية كلّها، وفي دول بقه تدوّر عالفيلسوف الحكيم، أندر الأنواع وأجودهم.

راجل «فيلسوف» مهموم دايما إن هو وعيلته وعياله يعيشوا بشرف في سلام وسعادة ومشغول طول الوقت بإنه يلاقي طريقة

(١) الفيلسوف الإغريقي الشهير ٤٢٧ ق م - ٣٤٧ ق م.

يحقق بيها هدفه «الأخلاقي» ده؛ فيلسوف أهه وسليم النية بس نوعه حديد؛ الفيلسوف المتفلسف اللي همّه جماعة من الناس بينتميلها أيا كان نوعها وشغله الشاغل إزاي هو وقومه يبقوا كويسين، فيلسوف برونز؛ وفيه فيلسوف بيفكّر في مصلحة الوطن بكل من فيه، جماعته هم كل من يشاركه الأرض، فيلسوف فضة، لكن الفيلسوف الحكيم الدهب هو اللي مايقدرش يُقصر اهتمامه على أي حد أو أي جماعة بعينها سواء كانت جماعة صغيرة أو كبيرة، عيلة ولّا أمة، عايز العدل والحق والخير «للكل»، بيفكّر في كيف تسعَد البشرية كلّها.

وزي ما الكائن الفيلسوف بييجي بموديلات مختلفة، تبعا لنوع الفيلسوف بتختلف نوع أسئلته الفلسفية عن غيره، التساؤل الفلسفي أنواعه كتير كمان؛ فيه أسئلة فلسفية كل ثقافات الأرض بل كل بني آدم سألها، أسئلة عن بداية الحياة، عن الله، عن علاقة البني آدم بالإله، عن اللي بعد الموت، عن حرية إرادة ابن آدم، عن علاقة الحرية دي بالقدر، عن علاقة الأديان ببعض، عن العدل، عن الصح، عن الحقوق، عن الواجبات، كتيرة كتيرة جدا هي الأسئلة اللي بيسألها أو على الأقل بتخطر ببال جميع البشر على اختلافهم.

وجنب الأسئلة اللي بتعدّي على جميع الجميع دي، فيه أسئلة فلسفية بيسألوها الناس على حسب اختلافهم عن بعض، وكل واحد بيشوف علامات الاستفهام اللي شايلها غيره بطريقته، كما هو (مش كما هي الأسئلة)؛ تقعد انت محتار في سؤال عشرات السنين من عمرك وواحد غيرك يشوف إنه سؤال عبثي مافيش فايدة

من وراه، ويشوف غيره إنه عميق، وغيره إنه مهم، «كل فيلسوف» يشوف زي ما هو عايز، والفيصل الأهم بينهم وبين بعض هو النية أولا وأثر أفكارهم ثانيا.

أسئلة فلسفية هي اللي استعملتها البشرية عشان تدوّر على العدل شخصيا، عشان تخلق العلوم وتطوّرها، عشان تخلق السياسة، عشان تبني بيها الأمم والدول والحضارات، عشان تنجح وتتقدم. وده أهم أسباب اهتمامي الشخصي بالفلسفة، إنها ما بُنِيَ على أكتافها حضارة البني آدم شخصيا، ومادام بَنِت الحضارة يبقى منطقي إنها تكون ضرورية عشان تَبقى الحضارة.

بقالي سنين شايف إن حلول مشاكل مجتمعنا العضال عند الفلسفة، مش بمعنى إن الفلسفة عندها كتالوج أول ما تفتحه حتلاقي حلول لمشاكلك، بَل بمعنى إن حلول المشاكل العويصة اللي ليها علاقة بنفسية الشعوب وتاريخها وتأثير الزمن عليها وعلاقتها بسياسة من يحكمها... إلخ إلخ، مش ممكن نلاقيها غير باستعمال الفلسفة، أو يمكن الكلمة الأدق هي باستعمال «الفكر الفلسفي»، الطريقة الفلسفية في النظر للأشياء. لما تكون عندك مشكلة بسيطة، من أول إنك نازل من البيت مثلا ومش لاقي المفتاح، دي مشكلة حلّها إنك تفتكر حطيت المفتاح فين أو تدوّر عليه في كل مكان ينفع يبقى فيه، ولما بتلاقي المفتاح خلاص خلص الموضوع. لكن وانت بتفكّر في معضلات الديمقراطية والعدل والحرية والانتماء للأوطان وتوزيع الثروات مافيش حلول بسيطة، الحلول العادلة

كلّها مستخبّية في جيوب الفلسفة، ومافيش حاجة اسمها تدوّر فأكيد حتلاقي ماتنساش، بس من غير ما تدوّر، من غير ما تدخل حلزونة الفلسفة دي، تقيس وتحتار وتقارن وتفكر، حلول عميقة عادلة بتتعامل مع أي مشكلة من جذور الشجرة مش من أوراقها، مش حتلاقي.

بقيت شايف إن أعظم مشاكلنا إننا ماعندناش مرجعية فلسفية؛ شغلتها إيه المرجعية الفلسفية دي؟ شغلتها إنها ترسم إطار يتحرّك فيه المجتمع، اتّجاه؛ إحنا عايزين إيه؟ ناقصنا إيه؟ نجيبه منين؟ «نتحرّك في أنهي اتجاه؟»، ونختار اتجاهنا ده بناء على إيه؟ إيه اللي بيحكم اختياراتنا؟ مبادئنا بتتشكّل ازاي؟ مكوناتها إيه؟

لما تكون عايز تجيب مجموع كبير في ثانوية عامة مثلا الهدف ده بيحكم تصرّفاتك واختياراتك، ماينفعش تقعد عالقهوة ست ساعات في اليوم وانت عايز تجيب مجموع! لو عايز تنجح لازم تذاكر؛ بتبقى المذاكرة والاستفادة من كل وقتك، وهكذا، هي الفلسفة بتاعتك في السنة اللي انت عايز تجيب فيها مجموع دي، وفلسفتك دي طبعا بتخلّيك تتصرّف بطريقة معيّنة، بتخلّيك فيه حاجات تعملها وحاجات ماتعملهاش، وهو بيت القصيد؛ عشان تحقق أهدافك لازم يبقى عندك فلسفة.

إحنا بقه أول ما تبص علينا وانت ماشي في الشارع كده تكتشف إن أغلب الفلسفات اللي بتحكمنا هي فلسفات مضرّة على أقل

تقدير، ده إذا ماكانتش مدمّرة. فلسفات زي البقاء للأقوى أو الأصيع أو الأكثر انحرافا مثلا! فلسفة الأنانية بتتسيّد الشارع في مصر، عندنا القانون اللي اخترعته البشرية عشان يخلق نظام ويحافظ عالحقوق ويساوي بين الناس في الفرص ويؤدّي للنجاح وغيرها من الأغراض العظيمة، تحوّل على أيدينا إلى الحاجة اللي بنحاول نلف حواليها ونخدعها ونتصرّف فيها بأي طريقة عشان ماتعطّلناش! من أول الملايين اللي بيمشوا عكسي للملايين اللي بيبنوا عمارات مخالفة، للملايين اللي بيرتشوا ويعملولك اللي انت عايزه، وهكذا كتير كتير أمثلة. فلسفتنا حوّلت الالتواء إلى حداقة، والنصب إلى فهلوة، وخداع القانون والنظام إلى نصاحة، والتهرّب من المسئولية إلى مهارة تستحق التقدير والثناء. ولما تبقى دي الفلسفات اللي بتحكم حياتنا تفتكروا حتبقى إيه النتيجة الطبيعية؟!

فيه شعوب فلسفتها مُقدِّسة للعمل، للشغل، تلاقي كل الناس لوحدهم كده بيشتغلوا زي النمل مع إن أكيد منهم ناس مابيحبّوش الشغل ولا حاجة؛ فيه شعوب فلسفتها الانبساط، ناس ترقص ناس تغني ناس تعمل مهرجان كل أسبوع في الشارع، فيه كتير؛ فيه شعوب فلسفتها إن العدل أولا؛ فيه شعوب فلسفتها إن النجاح أولا، الاستمتاع بالحياة، الاستعداد للموت؛ فيه فلسفات كتير لسكان الأرض، لكل شعب ولكل أمّة فلسفة، وإنجاز الأمم دي ومساهمتها في تاريخ الحضارة وفي تحقيق العدل ونشر السلام والسعادة وغيرها من وسائل القياس الشبيهة، هو اللي بيقيّم فلسفة

الشعب ده أو غيره، بقياس أثرها عليه. فلسفة الشخص الواحد هي اللي بتحدد لونه، نوعه كشخص، وفلسفة الشعوب هي مجموع ألوان أفرادها، كل الألوان دي على بعض بتطلّع إيه في الآخر؟ نتيجتها «الطبيعية» هي إيه؟

عن اللون الواحد

كلمة «مجموع ألوان أفرادها» دي خلّيتني أفكّر في موضوع بيشغل بال الأمة العربية كلّها من سنين طويلة لكن بالخصوص من بداية عصر الثورات العربية الأخيرة، موضوع محاولة «إخوانّا» اللي بيُسمّوا خطأً بالإسلاميين على اختلاف أنواعهم ينشروها في المجتمعات العربية، هي تبدو فلسفة تديّن بس هي في نظري مش كده أبدا، هي فلسفة تديين؛ حاجة كده شبه إنك تبقى عايز تلوّن رسمة بس ماعندكش غير لون واحد فتلوّنها بيه وخلاص، فتبقى كل حاجة بنفس اللون! فتتحوّل عملية التلوين اللي شغلتها تنوّر الصورة وتوضّحها وتحلّيها وتبيّن ما فيها من تفاصيل وفروق بين الناس وبعض وتكامل بينهم، إلى عملية طمس للملامح وإخفاء للمختلف وإفقاد كل حاجة خصوصيتها المميَّزة لصالح اللون الواحد (اللي بالحتمية كئيب، لأنّه أصلا ضد الطبيعة، الطبيعة بتقول إن الناس مختلفين، ألوانهم مختلفة). غرض فلسفة هؤلاء هو إن المجتمع ماتبقاش فلسفته هي مجموع ألوان الناس المكوّنين ليه بل يبقوا كل الناس لون واحد (من اختيارهم هم طبعا، هم كلهم على

اختلافهم بيدّعوا إن ده اختيار ربنا لكن هو اختيارهم، كل قبيلة منهم بتختار لون ما، شبه التانيين بشكل أو آخر آه، لكن كل واحد منهم عنده لون واحد عايز يصبغ بيه الجميع، وبالعافية كمان) «وده مش إحنا اللي عايزين.. ده ربنا!»، كإن ربنا يعني محتاج مساعدة حد عشان يعمل اللي هو عايزه! وكأنه عيّنهم وكلاء، وكأن الناس ربنا ماخلقهمش بألوان مختلفة لإن بالألوان المختلفة تستقيم الحياة.

تأمّل لونك أرجوك، فكر «انت» لونك إيه، وفكّر في مساهمة لونك ده في وسط ألوان الحياة بيسبب إيه. وماتخلّيش أي كائن كان يلوّنك بلونه أيا كان اللون.

إن العالِـم بيـدوّر بس على اللي يقـدر يثبته بالتجربـة أو الملاحظة، لكـن مافيش تجربة نقدر نعرف بيهـا هل الوقت كان له بداية ولّا لأ، مافيـش تجربـة نقـدر نفهم بيهـا الحقـوق، مافيش تجربـة نفهم بيها الجمـال، العدل، اليقين... إلخ إلخ. وهنا بيبدأ شـغل الفلسـفة، في محاولـة إعمال العقل والمنطق فيما لا يمكـن إثباته بالعلم. وده هو مصدر المقولة الشهيرة «الفلسفة تبدأ حيث انتهى العلم».

الأول العلـوم بتبدأ مـن عندها، كل علوم الأرض بدأت بسـؤال فلسـفي، وفـي محاولة الإجابة يمشـي العلم لوحـده لحد ما يوصل لمكان مايقدرش يعدّيه، فتبدأ الفلسـفة تاني من المكان اللي وصلّه العلـم بالتجربـة والملاحظة وخـلاص مش قادر يتخطّـاه ده، يرجع تانـي يحتاج الفلسـفة عشـان تفتحلـه أبواب جديدة، تسـأل أسـئلة جديـدة يحاول يجاوبها، وينطلق تاني، وهكذا؛ العلم في كل خطوة مـن خطواتـه محدود باللي نعرفه، لكن الفلسـفة عندهـا القدرة إنها تبقى ماشية كام خطوة قدام عشان تقود الطريق.

بَشـوف إن العلوم لما كانت بتمسـك نفسـها كده ويشـتد عودها ويبقالهـا منهـج وقواعـد وأصـول كانـت مسـاحة التفلسـف فيهـا بتقـل؛ وكأنّ أي علم وهو طفل بيعتمد عالفلسـفة مايقدرش يمشـي مـن غيرهـا ولمّـا يكبر شـوية ويتعلّـم الكلام والمشـي يبدأ يسـتقل بنفسـه ويبعـد. تخيّلوا الإنسـان من آلاف سـنين ماكانـش عنده أي معلومات عن الكون، الكون بالنسباله كان الشمس والقمر والنجوم والأرض، الحاجات اللي هو شـايفها، بس لما كان يبص في السـما

كده ماكانش بيبقى عارف إيه ده، فطبيعته الفضولية الفلسفية تضطرّه إنه يسأل ويفكّر ويحاول يوصل لتصوّر، عايز يفهم. وبعد ما سأل نفسه كتير عن كل حاجة وبدأ يعرف بقه، بقى فيه علم فلك مثلا، مابقاش خلاص بيبص لفوق وهو مش فاهم حاجة، بدأ يعرف إيه ده ويذاكره فقلّت تساؤلاته الفلسفية وحلّ مكانها متطلّبات العلم نفسه. المتخصص المهتم بالحكاية دي عدّى مرحلة إنه مش فاهم حاجة إلى إنه بيراقب حركة النجوم وتشكيلاتها وبينشغل بإنه يحاول يعمل تليسكوب يشوف بيه أحسن وهكذا، فيبقى عالم فلك. بعد ما كان بيتساءل ليه المطر بينزل، وليه الفيضان بيحصل، فهم المطر والفيضان فبدأ يتعلّم إمتى يزرع ويزرع إيه ويحصده إزاي وهكذا فطلع علم الزراعة وبدأ يتطوّر من ساعتها لحد النهارده. وهكذا وهكذا بقه في كل علوم الأرض؛ تولدها الفلسفة الأم، تكبر وتستقل، يبقالها فلسفتها الخاصة، ولما تكبر خالص بقه وتفتكر نفسها عارفة كل حاجة تبطّل تتفلسف. وبرضه زي في كل الحالات، أول ما تبطّل تتفلسف يبدأ الجمود رويدا رويدا يتسرّب إليها. وتبدأ تقع في أخطاء «فلسفية»، يبدأ العلم نفسه يرتكب حماقات تضر المجتمعات أو البيئة أو المستقبل، لما يخسر البوصلة، الضمير؛ أيوا هي الفلسفة ضمير العلوم، بل هي ضمير البشرية.

لما تتأمّل تاريخ الفلسفة في الدنيا تلاقي بسهولة ارتباط قوي بين طبيعة المجتمعات وحاجتها للتفلسف؛ في أغلب عمر البشرية الطويل، البني آدم كان بيمتهن الأول الرعي والصيد والزراعة، فأول

سمة للمجتمعات دي كان إن الناس عندهم وقت يفكروا ويسألوا ويحتاروا، بيئة خصبة جدا للفلسفة. العامل التاني المهم اللي برضه بيحدد مدى احتياج الناس للفلسفة في حياتهم هو قد إيه همّ بيتحكّموا في ظروف حياتهم دي؛ بمعنى إن مجتمع زراعي بيستنى المطر أو بيحسب حسابات الفيضان (اللي هي حاجات خارجة عن نطاق سيطرته)، حاجته للتساؤل والفهم والتفلسف كانت مختلفة عن مجتمع نشاطه قائم على الرعي مثلا، وحاجة المجتمعين دول للتفلسف كانت مختلفة عن حاجة مجتمع نشاطه الاقتصادي قائم على الصيد، أو السفر بالبحر في رحلات طويلة (بما يستتبع ده بقه من الحكايات الغريبة اللي كانوا بيرجعوا يحكوها عن ناس وحضارات مختلفين عنهم وهكذا). لكن في كل الأحوال، اعتقادي إن كل ما كان البني آدم متحكّم أكتر في مصادر رزقه وتفاصيل حياته كل ما كانت حاجته للتفلسف أقل. بان ده بوضوح أكبر في مراحل لاحقة من تاريخ البشرية في عصر النهضة وبعدين الثورة الصناعية وبعدين العصر الحديث. قبل ما البشرية تخطي خطوة كبيرة في أي اتجاه، لازم قبل الخطوة يحصل تغيّر في الفكر، في الفلسفة، وتبقى الخطوة اللي حصلت نتيجة للفلسفة اللي اتغيّرت، وبعدين يحصل الركود لحد ما الميزان يتعوج، ترجع الحاجة لفلسفة جديدة، تطلع الفلسفة الجديدة يبدأ العالم يتحرك بناءً عليها وهكذا.

لمّا الثورة الصناعية قامت كمثال مهم أعتقد للموضوع اللي بتكلم فيه ده، بدأت البشرية تتحكّم أكتر في مكوّنات حياتها؛ بقى

فيه مصنع بوَرديات، بمواعيد، بأرقام محددة، بقى الإنسان عارف بقدر ينتج قد إيه، ومحتاج إيه بالظبط عشان يزوّد الإنتاج... إلخ إلخ، سيطرة كاملة أهه، سيطرة خلّت حاجته للتفلسف تبدأ تقل. أو في الحقيقة إحساسه وإدراكه لحاجته للتفلسف هو اللي بدأ يقل، لإنه لسه فيه كتير أوي محتاج يتفلسف فيها. لسه عايز يعرف يوزّع مكاسب الصناعة دي ازاي، عايز يعرف إيه حقوق العمّال اللي بيشتغلوا دول، عايز عدالة اجتماعية وفي نفس الوقت عايز ينجح وينطلق، لسه الكائن الفيلسوف عنده مليون حاجة محتاج يفكّر فيها. بس الفرد العامل العادي اللي بيشكّل الأغلبية العظمى من المجتمع الصناعي ده خلاص بقى بيروح المصنع الساعة كذا وينتج كذا قطعة في اليوم ويمشي الساعة كذا ويروّح ينام وياخد يوم أجازة في الأسبوع يتغدى فيه مع العيال وخلاص، حاجته للتفلسف قلّت.

لما تتأمّل العالم النهارده تكتشف علطول إن لسه الاحتياج موجود ويمكن أكتر من أول التاريخ! بعد الثورة الصناعية بوقت تافه في عمر الزمان وبعد ما جاوب الإنسان شوية من الأسئلة اللي ذكرناها حالا دي، اكتشف البني آدم علطول إنه بدأ يخلّص عالغابات، التلوّث اللي بتسببه المصانع وإنتاج الطاقة بدأ يغيّر في مناخ الكوكب، بقوا الفقراء بالمليارات، والعاطلين عن العمل بمئات الملايين[1]، وفيه مشاكل كتير جدا بتواجه عدالة توزيع

(١) منظمة العمل الدولية قالت إن في ٢٠١٣ العالم كان فيه ٢٠٢ مليون عاطل في العالم.

الثروة والموارد. فيه جهل وفقر وتطرّف وقتل جماعي في حروب مجنونة، فيه أسلحة نووية بتهدد الكوكب كلّه بالخطر، التعليم الجمعي بعد ما كان ضرورة في وقت ما تحوّل إلى كارثة في أغلب الكوكب، كل دي مسائل فلسفية؛ العلوم المتخصصة في كل حاجة من دول، هم اللي عندهم القدرة على ابتكار وسائل للإصلاح والتطوير وحل المشاكل، لكن التساؤل الفلسفي هو اللي أصلا بيثير الاهتمام بالمشاكل دي، هو اللي بيشاور عليها ويحذّر منها. والمنهج الفلسفي في التفكير هو اللي بينبّه العالم إن المشاكل دي محتاجة تتحل، وهو اللي بيرسم المسارات اللي حتمشي فيها الحلول، بنفس الطريقة اللي كان بيرسم بيها مسارات تتحرّك فيها العلوم في بداياتها. ده طبعا لو العالَم اهتم بإنه يلاقي الحلول العادلة الأخلاقية اللي بتصون الحقوق وبتحافظ على الإنسان ونوعه وثقافته وبيئته اللي عايش فيها، مش الحلول اللي بتكسّب أي حد فلوس أكتر! بس للأسف الاحتياج لفلسفة جديدة بيتولد دايما بعد ما أي مشكلة تكون كبرت، المشاكل العُضال هي اللي بتفرض على البني آدم الحاجة للتفلسف فيها. شوف البشرية كلّها قعدت قد إيه من تاريخها لحد ما «الفلسفة» اكتشفت إنه ماينفعش يبقى فيه عبيد، شوف دمّرنا قد إيه من كوكب الأرض وقد إيه كائنات انقرضت بسببنا... إلخ إلخ، قبل ما فلسفة العالم وهو بينتج ويكبر بدأت تتغير للمحافظة على البيئة، مثلا يعني.

يبدو لي كمان أن التضاد كواحد من أهم محرّكات الدنيا اللي مخلوقة من خير وشر، شجاعة وجبن، رحمة وقسوة، حب

وكراهيـة... إلخ إلخ برضه من مسـببات احتياج ابن آدم للتفلسـف. كل ما يزيد التضاد كل ما تزيد الحاجة للتفلسـف، عشـان بالفلسـفة بس يقدر يوصل البنـي آدم إنه يحقّق توازن تاني بين الحاجات اللي عكس بعض اللي بتسبب مشاكل دي. كل ما يزيد الظلم كل ما يفكّر البنـي آدم «الفيلسـوف» في العـدل، كل ما زاد الجهـل كل ما زادت الحاجـة إلى إيجاد طرق للقضاء عليه، كل ما يزيد الفقر جنب الغِنى كل ما تزيد حاجة البني آدم انه يفكّر ازاي يعدل الميزان المعووج ده، وعدلة الميزان -كل ميزان- شغلة الفلسفة.

الفلسفة هي الحجر اللي بنى عليه البني آدم كل إنجازه الحضاري مـن أول خلقُـه، وكل مـا بعـدت البشـرية عن الفلسـفة والتفلسـف كل ما حتمشـي بالعـرض أو ترجع لورا مش حتمشـي لقـدّام، ومن المعـروف يعني إن دايما فيه قدّام عشـان دايما فيه أحسـن، وشـغلة الفلسـفة الأصليـة الأصيلـة بقه هـي إنها تدوّر عالأحسـن. فلسـفة الشـعوب هـي اللي بتحـدد اتجاهاتها، هـي اللي بتحدد الشـعب ده حيحـل مشـاكله ولّا لأ؛ حيتحرّك في اتجاه تحقيـق العدل والنجاح ولّا لأ؛ حيبقى مجتمع بيُعلي قيم الحق والخير والجمال ولّا حيبقى مجتمـع بيُعلي قيم أبّجني تجدني، واحيينـي النهارده وموّتني بكره، وهـي جـت عليّـا انا يعنـي؟! والحاجـات الظريفـة دي اللـي كلكو عارفينها كويس.

تفلسفوا تصحّوا...

مـا هو روحاني في أصلـه وفصله بالعقل! فبيقعوا فـي حفرة منطقية عملاقة جدا).

المعضلـة التانية الأكبر لإنها فـي رأيي صاحبة التأثير الأكبر على العلاقـة بين الفلسـفة والدين تاريخيا؛ هي إن الفكر الفلسـفي نظريا عايـز دايما يتحرر من كل القيود، والمؤسسـات الدينيـة من الناحية التانيـة علـى اختلافهـا مابتحبّش فكـرة الحرية مـن كل القيود دي، وخصوصا لما ترتبط المؤسسة الدينية بسلطة الحكم (زي ما حصل فـي معظـم تاريـخ الأرض). وعـدم الحـب ده بيحصـل بدرجـات متفاوتـة طبعـا؛ ممكن السـلطة اللي متجـوزة المؤسسـة الدينية دي تخالـف حريـة الفكر بس، ممكـن تعاديها، ممكـن تقمعها، ممكن تقتلها، على حسب الظروف.

وبعدين في سـيناريو شـبيه للـي بيحصل مع العلوم كده، مسـألة البحـث عن إله أصلا فكرة فلسـفية، الدين ييجي يشـملها بإنه يقدّم إجاباتـه الخاصـة عن الإله، بلغـة القوم اللي نزل عليهـم الدين، بما يليـق علـى طريقـة تفكيرهـم وثقافتهـم، بما يليـق على مـا يعرفون عمومـا. (لو نزل القرآن على قوم عايشين في فرنسا ماكانتش حتبقى صورة الجنة اللي حيرسـمها القرآن ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1]

(١) ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾.(محمد: ١٥)

إن فيها فاكهة وأنهار لبن وعسل لإن الحاجات دي متوفّرة في الدنيا بتاعتهم أصلا! مثلا يعني). فييجي الدين كفكرة فلسفية يقدم إجاباته الخاصة على الأسئلة، وكل واحد يُعرَض عليه الدين يناقشه فلسفيا برضه مع نفسه، لحد ما يرتضيه فيعتنقه ويتّبعه ويمشي بقه مع الناس. وزي ما حصل مع العلوم بعد ما كل دين كانت تستتب له الأمور على الأرض والناس ماشية بقه في إطاره بقوة الدفع، بمر الزمن وتبدأ تظهر أسئلة جديدة ماكانتش موجودة قبل كده، محتاجة إجابات ماكانتش موجودة قبل كده، فيبدأ تاني يبقى عنده احتياج للتفلسف، للفهم الجديد في ضوء المتغيّرات الجديدة اللي ماكانتش موجودة قبل كده وهو الدين بيتولد. وطبعا ساعتها بيبقى التفلسُف ده تحت مظلة الدين (زي بالظبط فلسفة كل علم على حدة بعد ما كان يطلع من كَنَف الفلسفة الأم للتساؤل وهو بيكبر)؛ ولما الاحتياج ده لا يُلبّى، لما يُتَجاهَل، يحصل إيه؟ يبدأ نفس الجمود يتسرّب إلى فكرة الدين رويدا رويدا لحد ما تُرتكب باسم الدين أخطاء فلسفية أخلاقية وجودية، نفس السيناريو المتكرر كثيرا!

فيه فلسفة لكل دين، بل فلسفات كتير كمان على حسب اختلاف معتنقي الدين ده عن بعض؛ اختلافهم يسبب اختلاف في طريقة تفكيرهم، واختلاف طريقة تفكيرهم يسبب اختلاف في فلسفاتهم، في طريقة فهمهم للدين كله من أول العقيدة لحد كل التفاصيل؛ فلسفة الكاثوليك غير فلسفة البروتستانت غير فلسفة الأرثوذكس، فلسفة الأشاعرة غير فلسفة المعتزلة غير فلسفة الصوفية غير فلسفة السلفية اللي هم أصلا أصلا فلسفتهم إنهم يعادوا الفلسفة!

والتفلسف ويرفضوهم، بمنطق امشي جنب الحيط عشان ماتغلطش، فيرتكبوا وهم بيعملوا كده أكبر غلطة ممكنة!

فيه واحد فيلسوف متحرر تماما من أي قيد ديني على أفكاره، فيُطلق لخياله العنان ويطلّع نظريات فلسفية مش محكومة إطلاقا بكل ما هو ديني، وييجي فيلسوف تاني من تحت مظلة الفكر الديني ويبدأ يتفلسف في الكون والدنيا والاجتماع وأحوال البشر بس من خلال إيمانه العقائدي؛ هو خلاص صدّق الدين وآمن بيه فتبقى دي نقطة انطلاقه. تخيّلوا صاروخين طالعين للفضاء واحد منهم طالع من الأرض والتاني طالع من القمر، نقطة انطلاق مختلفة، بتغيّر في المعطيات وفي المطلوب إثباته وفي نوع الأسئلة المطروحة لكن في الحالتين فيه فضاء عظيم ممكن استكشافه.

يعني مثلا ممكن واحد فيلسوف (مش اشتراكي خالص طبعا ☺) يفكّر في أخلاقية ضرايب إعادة توزيع الثروة (نوع الضرايب اللي بيتّاخد من الأغنيا عشان يتصرف تحديدا على خدمات للفقراء) وبيفكّر هل الضرايب دي فيها اعتداء على الملكية الفردية بما إن الدولة في الحالة دي بتفرض ضرايب كتير على الأغنيا «غصب عنهم» عشان تلبّي احتياجات الفقرا؟ مع إنّهم مش مسئولين عنهم، مش همَّ اللي خلّوهم فقرا! وبعدين همّ تعبوا في الفلوس اللي عملوها دي، جابوها بمجهودهم، يشاركوا الفقرا فيما يملكوا ليه؟ وهكذا أسئلة؛ لو الفيلسوف ده راجل ملحد أو مؤمن بربنا بس مش مصدّق الأديان بيفكر في الموضوع ده من منطلق عقلي أخلاقي بحت، بس هو لسه عنده معطيات برضه؛ معطيات التاريخ وتجارب الدول وأثر

الفقر على المجتمعات وقدرات الحكومات على محاربة الفقر، عنده الظروف اللي حوّلت الغني إلى غني وأبقت عالفقير فقير، عنده معطيات كتير جدا والأهم إن عنده «عقل ومنطق» بيستعملهم في التفكير. الفيلسوف التاني المسلم، اللي بادئ من نقطة انطلاق إنّه مصدّق الإسلام ومؤمن بيه، يعني مصدّق القرآن ومؤمن إنه من عند الله، وبالتالي مصدّق إن الزكاة فرض على المسلمين؛ وهو بيفكّر في المسألة دي بيبقى من ضمن معطياته أن الله فرض زكاة على المسلمين، ده بالنسباله حصل خلاص مش مطلوب إثباته؛ وبيشوف بقه هي نسبة الزكاة دي كام! عشان تفرق كتير جدا هي الزكاة المفروضة دي ٤٠ ٪ ولّا ٢٠ ٪ ولا اتنين ونص ٪. وبعدين من ضمن معطياته كمان، هي الزكاة المفروضة في الإسلام دي، مفروضة على المسلم عشان يبقى أدّى ما عليه «باختياره» ويتحمّل تبعات إنه لا يؤدّي ما عليه «باختياره»؟ ولّا مفروضة دي يعني اللي مايدفعش الزكاة الدولة تحبسه زي ما بيحصل في الضرايب؟ لكن الضرايب بيفرضها القانون، والزكاة بيفرضها الدين؛ الزكاة للفقراء بس لكن الضرايب عشان الدولة تقدر تفضل ماشية؛ الضرايب واجب تجاه الدولة والزكاة عبادة يُقصد بيها وجه الله. إيه العلاقة بينهم؟ وإيه الفروق بينهم؟ وينفع يبقوا حاجة واحدة ولّا لأ وهكذا أسئلة برضه. أسئلة مختلفة عن الأسئلة اللي بيطرحها الفيلسوف اللي بيدوّر عالأخلاقية والصح في موضوع الضرايب من غير تأثر بمعطيات الدين. نفهم من المثال ده إن الفيلسوف الغير مؤمن بدين، عنده صحيح حرية أكبر في الحركة لإنه ماعندوش معتقد

بيحدد إطار لأفكاره (نظريا بس طبعا لإن عمليا دي حاجة صعب جدا إثباتها إذا ماكانتش مستحيلة، إنّك تكون فعلا حر تماما وانت بتفكّر؛ من كل ما هو مجتمعي، نفسي، تاريخي، قيود كتير جدا بتُفرض على تفكيرات البني آدم حتى لو ماخدش باله منها)، لكن الفيلسوف المؤمن بالله ثم الفيلسوف المؤمن بدين ما مهمّته أصعب لإن عنده مواءمات بيعملها جوّه دماغه بين حرية فكره وبين قناعته العقائدية الدينية. لكن في كل الأحوال ما دام فيلسوف لازم حيبقى عنده أسئلة، أسئلة بقه الدين طرف فيها مش طرف فيها، ربنا نفسه طرف فيها ولّا مش طرف فيها، الحياة محيّرة لكل فيلسوف محب للحكمة والحق والعدل والصح أخلاقيا وبيدوّر عليهم.

العلاقة المهمة دي بين ما هو رباني/ ديني وما هو فلسفي، هو إن الفلسفة أصلا زي ما قلنا مبنية على التساؤل والتفكّر، فأيا كان الشخص المتفلسف، فهو عنده قناعة دينية وعنده تصوّر عن الله، حتى لو كان مش مؤمن بوجود الله، هو لسه عنده تصوّر عن خلق الدنيا، لو مش مؤمن بالأديان لسه عنده تصوّر عن مصدرها، وما دام عنده «تصوّر» أو حتى بيحاول يوصل لتصوّر، يبقى بيسأل، ومادام بيسأل يبقى بيتفلسف.

الفلسفة طريق لليقين، طريق مش مصطبة، بيفضل صاحبه ماشي فيه مابيقفش أبدا، فيه يقين تاني من غير طريق، بيقعد فيه صاحبه ويستقر كده ويبقى مش حاسس إن فيه حاجة هو محتاج يتساءل عنها أو يفكّر فيها، هو حر طبعا لكن ده تحديدا عكس الفلسفة. الفلسفة حركة دائمة مابتقفش أبدا في اتّجاه اليقين والحكمة. واللي

نشوفوه مستقر كده وقاعد فوق مصطبة يقينه وبيدّعي إنه فيلسوف ماتصدّقوهوش أبدا، ده فيلسوف مضروب، مؤمن بقه مش مؤمن هو مضروب في كل الأحوال.

في كل الأحوال مؤمن كان الفيلسوف أو لأ، معتنق لدين أو لأ، متّجه للفضاء الفلسفي الفسيح من كوكب الأرض أو من القمر، ماتنسوش إن لازم المسألة الفلسفية، الفكرة الفلسفية، تعتمد وتقوم وتُبنى على المنطق، على المجهود العقلي؛ حتى وهو الفيلسوف بيفكّر في المعتقد الإلهي الديني. الفلسفة بتقيس المسافة اللي ممكن يمشيها المنطق والعقل لوحدهم، من غير الاعتماد على غيرهم.

ما ذكر عن إن العقيدة الإيمانية الدينية بترسم إطار للفكر الفلسفي يتحرّك فيه، صحيح بيبدو إنه بيعمل قيود على الفكر الفلسفي آه بس مهم جدا نلاحظ كمان إن الأديان كان ليها تأثير عظيم على الفكر الفلسفي؛ الأديان طرحت أسئلة فلسفية ماكانتش موجودة من غيرها، ماكانش فيه احتياج ليها. لو بني آدم «فيلسوف» مش مؤمن بالله ولا الجنة ولا النار، خلاص مابيفكّرش في الموضوع ده، بالنسباله الحياة بتنتهي بالموت وخلاص خلصنا، عنده مليون حاجة يفكّر فيها لو عايز بس دي مش منهم. البني آدم الفيلسوف المؤمن بالله والجنة والنار على سبيل المثال التاني، بيسأل بقه طب هو معنى إن الإسلام آخر أديان السماء، «آخر تجلّية من دين السماء الواحد» إن اللي مش مسلم حيروح النار؟ طب واللي مش مسلم بس مبادئي وصالح وأخلاقي بل ومؤمن بالله كمان يروح النار ليه؟ عشان ماصدّقش الإسلام؟ طب ما هو صدّق المسيحية أو اليهودية! إيه ذنبه إنه ماصدّقش وهو التصديق ده أصلا فعل لا إرادي؟! عشان

مـادوّرش؟ ومين قال إنه يقدر يدوّر؟ طب بـلاش، يعني منطقي إن ربّنا يعذّب راهب هندوسي قعد طول عمره يتعبّد للخالق عشان مابيسمّيهوش «الله»؟ دي أسئلة فلسفية أهِه وغيرها فيه آلاف، فيما يتعلّق بالجبر والاختيار، بالعدل الإلهي، بالحساب بعد الموت... إلخ إلخ، كل دي أسئلة الأديان هي اللي دفعت «المؤمنين» إنّهم يسألوها. الأديان هي اللي خلقتها.

استفادت الفلسفة كمان من الأديان في تطوير المنهج الفلسفي والأدوات الفلسفية في الجدل والتحليل والمَنطَقَة؛ لو كانوا كل الناس مؤمنين بالفطرة (وأغلب سكان الكوكب مؤمنين بالله فعلا لكن مش كلّهم طبعا) ماكانش بقى فيه احتياج لفكرة المناظرة بين عقيدة إيمانية وعقيدة مش إيمانية؛ وباتّباع نفس الفكرة لو كل سكّان الأرض مؤمنين بالفطرة بدين واحد ماكانتش فلسفة البشرية استفادت كل الاستفادة العظيمة دي اللي اكتسبتها وهي الأديان بتتناظر وتتناقش وتقارن بين معتقداتها. وطبعا المقصود هنا هو المناظرة الفلسفية الحقيقية اللي بتسأل أسئلة وبتدوّر على إجابات وعقول المشتركين فيها مفتوحة للتعلّم، مش النصب اللي بيحصل كتير على التلفزيونات وهو بيحاول يتنكر في صورة مناظرة عقلية فلسفية.

الفلسفة مش شرط تؤدي بصاحبها إلى الله، لكن من غير فلسفة مافيش وصول إلى الله.

أعتقد مهم كمان في السياق ده نذكر أن الله نفسه منفصل عن مفهوم الله عند الثقافات المختلفة عبر تاريخ البشرية كلّه؛ الله هو الله، لكن الله في أذهان البشر هو فكرة فلسفية! كل واحد أيا كان الدين اللي بيؤمن بيه عنده مفهوم عن الله، هو اللي عامله، عقله اللي أنتجه باستعمال مكوّنات الثقافة اللي طلع في الدنيا لقاها. لكن المنطق بيفرض علينا الاعتراف بإن المفهوم ده عن الإله مش شرط خالص يبقى صحيح. والدليل الأكبر هو اختلاف مفهوم الإنسان عن الله بين شخص وشخص حتى لو الاتنين مؤمنين بنفس الدين واتعلّموه بنفس الطريقة من نفس الشيخ أو في نفس الكنيسة أو المعبد، بس اختلاف طبائعهم وشخصياتهم وتعليمهم وطريقة تفكيرهم وبيئاتهم وطريقة فهمهم للدين عن بعض، كل ده بيخلق مفهوم مختلف عن الله في أذهانهم، مفهوم فلسفي بيحاول يفهم ما لا يمكن إدراكه بالحواس. البشر لم يروا الله رؤيا العين، بل وإن الأغلبية الساحقة الماحقة من المؤمنين بالأديان حتى لم يقابلوا الرسل الذين جاءوا بالدين الذي يؤمنون به؛ فأصلا بالنسبة لكل بني آدم فكرة الإله خالق الكون هي فكرة فلسفية، كل تصوّرات كل البشر عن الله على اختلافاتها الكبيرة عن بعض هي تصوّرات فلسفية.

القدماء في كل الحضارات تصوّروا آلهة عديدة كل واحد فيهم مسئول عن جزء من الحياة، فيه تصوّروا إن الحاكم تجليّة من تجليات الإله، فيه ثقافات تصوّرت آلهة عديدة هي برضه تجليات من تجليات إله واحد، فيه ثقافات تصوّرت إن كل الكون هو الله،

إن الكون مش منفصل عن خالقه، فيه من دول ثقافات آمنت بالحياة بعد الموت، فيه ثقافات آمنت أن الحياة أزلية وبعد الموت بيحصل «reincarnation»، بيحصل لكل حي إعادة بعث في صورة تانية؛ الثالوث المقدّس عند المسيحية فكرة فلسفية، تصوّر عن الإله، يختلف في فهمها المسيحيين نفسهم فيما بينهم لحد النهارده، وللأبد؛ كل دي وغيرها كتير تصوّرات فلسفية حاول بيها البني آدم يحل «لغز الإله» لو جاز التعبير، لكن الواضح أن الله الخالق أراد أن يكون لغزا غامضا على العقل البشري أصلا، حتى عند من يتصوّر أنه يعرف الله كما هو، هو مايعرفش في الحقيقة، مستحيل يعرف لأن الله مُطلق وهو محدود، المحدود مستحيل يُدرك المطلق إدراك كامل يليق بيه؛ هو (زي كل الناس) عنده تصوّر بس عن الله لكن صدّق التصوّر ده زيادة عن اللزوم فحوّله لحقيقة في راسه (لإنّه بِعِد عن فطرته وطبيعته الفلسفية).

إبراهيم الخليل أول الأنبياء عنده مكانة عظيمة بيشير لها القرآن في مواضع كتير، سمّاه القرآن لفظا «أول المسلمين» وحكى نفس القرآن ازاي سيدنا إبراهيم وجد الله بالتفلسف[1]؛ «الآلهة اللي انتو بتعبدوها دي أصنام لا تضر ولا تنفع، الله أكيد في السما، طب يكون الكوكب ده؟ لأ ده بيجي ويروح. طب يكون القمر؟ بينوّر

(١) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. (البقرة: ٢٦٠)

في السماء المظلمة. لأ ده شكله بيتغيّر كل يوم وبيختفي كل شهر. طب تبقى الشمس؟ أكبر ونورها أكتر، أكيد هي الله! لأ دي بتغرب كل يوم، مش معقول الله يغرب»؛ لحد ما لقى الله بالتفكّر والتدبّر والتفلسف؛ فضل يسأل بإصرار ويطلب جواب بصدق وإخلاص نية لحد ما ربنا نفسه في علاه جاوبه. وحتى بعد ما لقى سيدنا إبراهيم الله فضل فيلسوف لازم يقتنع، لازم يصدّق بعقله كمان؛ فسأل الله أن يريه كيف يحيي الموتى، ولم يغضب الله من سؤاله ولا حاجة ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، قصة قرآنية أهِه بتعظّم من شأن التفلسف والتفكّر والتدبّر والسؤال والبحث عن إجابة «بالعقل» أكبر نعم الله على البني آدم (وأكبر نقماته كمان!).

الأديان أصلا أصلا أفكار فلسفية، كل دين فكرة فلسفية، الأديان اللي صنعها البشر طبعا صنعها فلاسفة، والأديان (اللي أنا مصدّق أنها أُرسلت من السماء) أرسِلت على فلاسفة، الفلسفة هي جسد أي دين، مافيش دين من غير فلسفة، مايقدرش الدين يعيش من غير جسد «فلسفي». حتى لو اتشوّهت فلسفة الدين في عقل بعض المؤمنين بيه أو حتى أكترهم، بيفضل برضه الدين عبارة عن فلسفة، حتى لو تم استبدال الفلسفة الأصلية للدين بأخرى مزيّفة على حسب الفهم والثقافة والنية بيفضل الدين فلسفة.

الفلسفة الدينية الربانية في إطار عام كده ممكن نقول إن هدفها تفهم الله وتفهم علاقته بخلقه وعلاقته بالبني آدم فتلاقي الطريق «الصح» -من وجهة نظر صاحبه طبعا- للإله الخالق. ولأن طبائع

الأديان مختلفة، فَالطريقة، الفلسفة اللي بيحاولُ يوصل بيها كل شخص لله من خلال دينه، بتختلف حسب معطيات الدين اللي مؤمن بيه، بعد طبعا الاختلاف بسبب عقله هو نفسه وشخصيته وظروفه.

مهم جدا نفهم إن شغلة الفلاسفة اللي بيعتنقوا أي دين الأول وقبل أي حاجة تانية إنهم يلاقوا فلسفة الدين ده، يفهموها، مش «يسمّعوا» الدين.. يفهموه! وبعدين يستخرجوا الفلسفة دي منّه عشان يبسّطوها ويبيّنوها للناس، لإننا عارفين إن دي مسألة صعبة على أغلب البشر فعشان كده ده الدور الأصلي لرجل الدين، الدور الأهم وقد يكون الدور الوحيد المهم. لإن من غير ما فلاسفة الدين يطلّعوا روح أي دين ويبسطوها للناس عشان يستوعبوها، يبقوا معتنقي الدين ده «كمَثَلِ الحمارِ يحمِلُ أسفارا»، ناس بيرددوا شوية كلام وبيعملوا شوية طقوس بس مش منتبهين لمغزى إيمانهم ولا الغرض من وراه ولا أثره عليهم ولا على ما حولهم.

لو تأملت المتطرّفين من أصحاب أي دين بتلاقي دايما حاجة مُربكة؛ دايما بيبقى فيه حاجة غلط، يعني المنطقي إن لو الأديان شُغلتها ترقى بروحك وتقرّبك من الله وتبعد الدنيا عن قلبك، يبقى المتطرّف بقه، الغاطس في الدين ده يبقى عنده كتير من الحاجات دي؛ هادي، زاهد، مابيخافش، مابيتعصّبش، مسلّم أموره إلى مَن خلقه، وهكذا؛ لكن ماتلاقيش كده عند المتطرّف دينيا أبدا، بتلاقي دايما حاجات مش لايقة أصلا على كونه شخص يعرف ربنا من بابه، مش يعرفه «زيادة عن اللزوم!». ويزيد الأمر تعقيدا إن مش بس

كده لأ، ده كل متطرّف دينيا في الدنيا لازم بالضرورة يبقى متأكد تماما إنه بيملك الحق والحقيقة لوحده هو ومن معه (اللي هو ينفع جدا يبقى تعريف التطرّف أصلا). بيحتكر الدين لنفسه، بيحتكر الله نفسه، وعشان يحصل كده لازم المتطرّف ده يبقى مش باصص خالص على فلسفة الدين اللي هو نفسه مصدّق إنه جاي من عند الله الرحمن الحنون الودود الجميل المحب لكل من خلق وإلا ليه يدّيهم الحياة من روحه هو نفسه؟! (ده بالمناسبة وعلى سبيل المثال برضه، سؤال فلسفي).

مصدّقها وبيحاول يثبتها بقه، مش اعتمادا على العواطف والنفسيّات والخزعبلات بل اعتمادا على الأدلة «العقلية»، مش الأدلة العلمية خلّوا بالكو، فيه فرق كبير؛ شغلة العالم لو عايز انه يلاقي أدلّة علمية تُضيف عقلانية إلى مسألة فهم الدين. (زي اللي كتير دوّروا عليها ولقوها في القرآن مثلا، مع التحفّظ على كتير من المحاولات دي اللي هي ولا علمية ولا فلسفية ولا عقلية ولا أي حاجة ليها قيمة)، لكن المتكلّم شغلته يقدّم أدلّة عقلية منطقية على اللي هو مصدّقه من العقيدة، هو يستعمل الأدلّة العلمية دي وغيرها ويحطّها في سياق عقلي منطقي، ويطرح أسئلة تخصّها ويحاول يقدّم تصوّرات عن الإجابة بما يقدر عليه، لكن هو أصلا بتاع عقل ومنطق مش بتاع علوم، هو فيلسوف. فلو فيلسوف غير مؤمن شكك في وجود الله أو في إن الإسلام هو آخر تجلّيات دين الله أو أو، اللي شغلته يتصدّى لتساؤلات أو تشكيكات الفيلسوف الغير مؤمن ده هو المتكلّم (الفيلسوف المسلم). ولما حد متسائل من خارج الدين أو من داخل الدين يسأل أسئلة «فلسفية» تخص الدين، شغلة نفس المتكلّم الفيلسوف ده إنه يحاول يرد بالحُجّة العقلية المنطقية، مش شغلة أي واحد لا يملك من المنطق ولا العقل شيء ويعمل نفسه حُجّة الإسلام وكده لمجرد إنه بيطلع في التلفزيون ولابس عمة، إنه يبقى أزهري مش كفاية خالص على فكرة ولا حتى إنه يبقى معاه ٣ دكتوراه في حفظ الكتب القديمة! لازم يبقى فيلسوف!

يكفي حد عشان يبقى رجل دين إنه يحفظ ما جاء في الكتب، يبقى كإنه مرجع، بدل ما انت تقرا كتب الحديث والفقه والسيرة... إلخ، هو يقراها ويذاكرها ولما تسأله عن حاجة «موجودة فيها» يقولّك، لكن الفيلسوف الإسلامي لأنه أصلا فيلسوف، لازم يتبع منهج «فلسفي» في البحث والتفكير والتحليل أولا، ولازم النتايج اللي يوصلّها تبقى طبعا نتايج عقلية منطقية برضه ثانيا، ولازم ثالثا الردود اللي بيردّها والإجابات اللي بيقدّمها تبقى ردود عقلية منطقية لإنّها طالعة من رحم فلسفي، طالعة من فيلسوف.

بعد المتكلّمين الأوائل دول، جه فلاسفة مسلمين في المقابل، الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد، ماكانوش زي المتكلّمين بيبدءوا من معتقدهم الديني ويحاولوا يثبتوه بأدلّة عقلية، كانوا بيبدءوا من شغل الفلاسفة الإغريق اللي نقلوا شغلهم للمسلمين، ويردّوا عليه بالعقل والمنطق برضه طبعا لكن من وجهة نظر إسلامية.

لما ابن رشد جه يعرّف الفلسفة وهو بيحاول يغيّر وجهة نظر الناس للفلسفة الإغريقية «الوثنية» اللي كانوا بيشوفوها على إنّها شر مستطير ممكن يدمّر إيمانهم ويقضي على دينهم، راح معرّفها التعريف الآتي، قال: «الفلسفة تهدف إلى معرفة الصانع عن طريق النظر في المصنوعات» وده الحقيقة تعريف مش صحيح من وجهة نظري مع تقديري الكامل لابن رشد، ده مش تعريف للفلسفة قد ما هو تعريف لعلم الكلام، أو هو تعريف للفلسفة الإسلامية؛ الفلسفة في حد ذات نفسها كده مابتهدفش للوصول لله ولا حاجة،

الفلسفة هدفها الوصول وبس، لأي مكان بشرط واحد إنها توصلّه باستعمال السؤال والعقل والمنطق وتفي بشروط الفلسفة. علم الكلام أو الفلسفة الإسلامية هي اللي شغلتها أن تصل لله، برضه باستعمال التساؤل والعقل والمنطق. علما بإن التعريف ده نفسه فيه خلاف عليه، هي الفلسفة الإسلامية ومن قبلها علم الكلام شغلتهم أن يصلوا لله؟ ولّا شغلتهم يتصدّوا للمشككين في وجود الله أو في أن الإسلام دين حق؟ ولّا همّ مجرّد فلاسفة زيّهم زي غيرهم بس بيفكّروا في المسائل كلّها بالمعطيات اللي خدوها من الإسلام؟ أنا شخصيا الخلافات دي لا تعنيني ومش مهم أصلا في رأيي إن كل الناس يتّفقوا على تعريف علم الكلام وشغلته والفرق بينه وبين تعريف الفلسفة الإسلامية، مش مهم الأسامي، ده ما هو إلا إلقاء ضوء على العلاقة بين الفلسفة والأديان وبس عشان نفهم ازاي مافيش ركن مهم من أركان الحياة إلا والفلسفة جزء أصلي أصيل منه، من غيرها يختل ميزانه.

الفيلسوف الإسلامي هو عالم الدين اللي شغلته يحط الأساس اللي بيتبني فوقه المنظومة الدينية في مجتمعه، هو اللي شغلته يحدّد ما هو المعلوم من الدين بالضرورة القاطعة الحتمية، وهو اللي شغلته يطلّع أحكام فقهية اللي بيستعمل فيها القياس العقلي (لإن القياس العقلي ده أداة فلسفية فلازم يستعملها متفلسف فيلسوف) فَالمفتي مثلا للناس بإيه حرام وإيه حلال ده لا يكفيه أبدا إنه يبقى «عالم دين» بل لازم يبقى فيلسوف إسلامي. عالم الدين اللي ذكرناه، هو

اللي مذاكر العلوم الإسلامية المختلفة حسب تخصصه ويُسأل في القرآن قال إيه هنا؟ يقول القرآن قال كذا. فيه حديث يخص المسألة دي؟ آه فيه، أهُه. ده حديث إيه مدى قوته من ضعفه؟ أهه. قالوا إيه القدماء في المسألة؟ قالوا كذا؛ ويخلص دوره عند كده، ولا ينطق بكلمة من عنده، لا يبت في شئون الدين برأيه إلا فيلسوف عنده قدرة على القياس والتحليل وربط المواضيع ببعض ورؤية الصورة الكبيرة واستخلاص فلسفة الدين وفهمها واستيعابها.

في رأيي جريمة أن يقترب من تفسير القرآن إلا فيلسوف، القرآن العميق الواسع ده ماينفعش «يحاول» يفهمه إلا فيلسوف متسائل مفكّر، حتى لو ماكانش عالم دين بالتصنيف، لو متمكّن من أدواته الفلسفية ومن اللغة وعنده أدوات بحث ومنهج «فلسفي» فليتفضل، حتى لو غلط، ما يغلط! ما كل العلماء والفقهاء والأئمّة غلطوا! الفيلسوف بحق عمره ما بيدّعي امتلاك الحقيقة، ده دور السفهاء والجهلاء وأنصاف المتعلّمين اللي مابيبقاش ليهم مكان غير للأسف لما ينتشر الجهل والخيبة. لو التزم علماء الدين بالأدوار دي وبقى لا يفسّر القرآن إلا فيلسوف إسلامي، ولا يصدر أحكام إلا فيلسوف إسلامي، ولا يتكلّم عن «الدولة الإسلامية» المزعومة من قبل سياسيين منتفعين إلا فيلسوف إسلامي، حتتحل مشاكل كتير جدا تخص المشهد العبثي اللي بيتدخّل فيه في شئون الناس والسياسة والدولة من لا يعرفون ولا سياسة ولا دين ولا العلاقة بينهم (ولا طبعا يعرفوا فلسفة!).

حصل كتير على مر تاريخ الدولة الإسلامية أن الناس (أغلبّ العلماء وتَبِعَهم العامة) خافوا من الفكر الفلسفي لإنّه في تصوّرهم بيهدد إيمان الشخص المتفلسف (بالرغم من أن الله أصلا فكرة فلسفية بالنسبة للبني آدم وكذلك الدين كلّه زي ما أعتقد إننا اتّفقنا) وعلما كمان بأنّ: لو خفنا من الفلسفة على إيمان الناس أو عقيدتهم لإنّها هشة لدرجة إنّه لو سمع بس سؤالين ومالقاش إجابة تريّحه، أو لقى إجابة عكس اللي هو مصدّقه أو أو، إيمانه حينهار تماما، يبقى هل ده إيمان حقيقي ولّا لأ؟ هل له قيمة فعلا ولّا لأ؟ هل لازم نعيد النظر في طريقة بناء هذا الإيمان وتلك العقيدة عشان نغيّرها مع الأجيال الجديدة ولّا لأ؟ (دي كمان أسئلة فلسفية بالمناسبة لا يمكن يطرحها من يُسمّى رجل دين عشان لابس قفطان، لا يطرحها إلا فيلسوف).

تكملةً للخط الطويل اللي مشيناه ده مهم نذكر أن الفيلسوف ممكن جدا يصل بالتفلسف إلى الله لكن ده مش شرط، الفلسفة ماعندهاش شرط. أما الفلسفة الإسلامية فعندها شرط (زي الفلسفة اللي طالعة من عباءة أي دين)؛ أن يبقى البحث العقلي المنطقي الفلسفي بتاعهم لا يخالف أو يعارض ما هو «معلوم من الدين بالضرورة»؛ مع التأكيد على ما ذكرنا من إن أصلًا إيه هو اللي معلوم من الدين بالضرورة ده مبحث فلسفي؛ يعني على سبيل المثال التافه، عند الوهابيين فرض الحجاب على المرأة بالعافية معلوم من الدين بالضرورة، وعند طالبان فرض تربية الدقن على

الرجالة بالعافية معلوم من الدين بالضرورة برضه، هم بيعتقدوا كده. فشغلة الفلاسفة الإسلاميين (يعني رجال الدين اللي عندهم قدرة على استعمال العقل والمنطق والتحليل عشان يوصلوا لإجابات للأسئلة المُشكلية)، هو بدايةً تحديد ما هو المعلوم من الدين بالضرورة. برضه ممكن يغلطوا طبعا زي ما غلطوا كتير عبر التاريخ، لكن ماتنساش إن مساحة الغلط بتقل جدا لو اللي بيعمل العملية دي فيلسوف، لإن الفلسفة بتستعمل المنطق كأهم أدواتها ولما تستعمل المنطق يعني الحساب الغلط وارد لإنك إنسان بس عنده فرصة أقل بكتير إنه يحصل.

فَالفرق بين الفيلسوف والفيلسوف الإسلامي إن التاني عنده شرط بيحكم تفكيره الفلسفي وهو ألا يخالف ما هو معلوم من الدين بالضرورة الحتمية القاطعة اللي مافيش فيها قولان، أما الفيلسوف فماعندوش الشرط ده (إلا إذا اختار إنه يحطّه لنفسه). ومن الكلام اللي فات ده ممكن بعد ما شفنا إن كل بني آدم فيلسوف بالفطرة (إلا إذا اختار مايتفلسفش)، يبقى كل بني آدم مؤمن، هو فيلسوف مؤمن بالفطرة (إلا إذا اختار مايتفلسفش).

جدير بالذكر هنا أن لفظة «المعلوم من الدين بالضرورة» دي، هي سبب معاداة الفلسفة الإسلامية دلوقتي وشبه اختفاءها من على الساحة العلمية العربية (لامؤاخذة يعني الساحة العلمية العربية). لما تحوّلت نسبة مرعبة من «علماء الدين» كما يسمّونهم إلى حَفَظة، كل شغلتهم يسمّعوا ما جاء في كتب الأقدمين؛ ولا تساؤل

ولا سؤال ولا فكر ولا منطق ولا فلسفة ولا حاجة؛ من يُسمّون علماء دين (مع احترام من يستحق هذا اللقب منهم وإن كانوا في نظري أقل القليل) بقوا زي كل مستفيد من «الوضع القائم» عايزين يدفنوا الفلسفة الإسلامية عشان ماتغيّرش حاجة في المنظومة اللي همَّ دلوقتي مرتاحين فيها جدا؛ بَلا فلسفة بَلا بتاع؛ هو الإسلام بتاعنا احنا واحنا عارفين كل حاجة والقدماء نقلوا عن الرسول والصحابة واحنا نقلنا عنهم وخلاص كده الموضوع خلص. حتى تفسيرات القرآن المعجِز العميق الواسع وقفت من زمان، خلاص شطّبوا، عشان فهموا كل حاجة! وتحوّل القرآن على أيديهم إلى صندوق أدوات أو أسلحة في الحقيقة بيطلّعوا منّه اللي محتاجينه عشان يُفحموا معارضيهم وبس؛ يقولّك ربع آية من هنا على نص آية من هناك، وخلاص برضه، فَالنتيجة المنطقية الوحيدة تبقى زي ما انتو شايفين حواليكو!

كنت كتبت مقالة عن مثال واضح جدا للاستعمال السيئ ده للقرآن، النصب على المسلمين باستعمال كتابهم المقدس نفسه وإيه من قِبَل من يظنّهم الناس علماء الإسلام! شايف إن ده موقع مناسب لمشاركتها عسى الصورة تكتمل.

«أنا شخصيا (وانتو كمان) من وانا طفل، آلاف المرّات سمعت فيها رجل دين بيذكر من القرآن ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾؛ مين أهل الذكر؟ هو طبعا، هو وبقية رجال الدين هم أهل الذكر، هم بيقولوا كده، بيدّعوا كده! أي واحد أزهري هو

أهل الذكر، أي واحد لابس جبة وقفطان في التلفزيون هو أهل الذكر. وبقية الناس طبعا مقارنةً بيه «لا يعلمون» فيبقى هو اللي يعلم وبالضرورة يبقى هو اللي من حقّه يتكلّم في أي حاجة تخص الإسلام، وكلامه لا يُصد ولا يُرد. حتى لو كان ذلك الرجل كل إنجازه في الدنيا إنه حافظ بعض القرآن وبعض الحديث وقرا بعض أمهات الكتب ومطوّل دقنه وبيطلع في التلفزيون ليَبدأ كلامه بالصلاة والسلام على رسول الله!

طيب تعالوا نذاكر بقه المثال ده كويس؛ أولا وبادئا ذي بدء الكلمة دي اللي بيستعملها «رجال الدين» عشان يفهّموا الناس بيها أن الإسلام ملكهم الخاص، ده جزء من كلام، جزء من آية في القرآن. بتقول إيه الآية؟ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1] طب ده سياق يخص من نسمّيهم رجال الدين من قريب أو بعيد؟ لأ. طيّب بلاش احنا نقول خالص، خلّينا ندوّر يمكن المفسّرين قالولهم كده ولّا حاجة؛ نلاقي إن حتى ابن كثير مثلا كبير المقام عند السلفية بالرغم من أن المجهود العقلي في تفسيره أندر من نادر واعتمد معظم شغله على جمع الروايات والتفسير من خلالها؛ كتب ابن كثير في تفسير الآية لفظا: «أي: اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر

(١) النحل: ٤٣ (واتكررت نفس الآية بتغيير لغوي بسيط وفي سياق متطابق في سورة الأنبياء الآية ٧)، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

الطوائف، هل كان الرسل الذين أتوهم بشرا أو ملائكة؟ إنما كانوا بشرا، وذلك من تمام نعم الله على خلقه؛ إذ بعث فيهم رسلا منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم». منطقي كلام ابن كثير، متماشي مع نَص الآية.

أحد المفسرين، الشيخ السعدي مثلا قصر المعنى على أهل التوراة والإنجيل من غير «سائر الطوائف»، وقال: ««فسئلوا أهل الذكر» من الكتب السالفة، كأهل التوراة والإنجيل يخبرونكم بما عندهم من العلم، وأنهم كلهم بشر من جنس المرسل إليهم». كلام مختلف شوية لكن بنفس المعنى ومنطقي برضه ومتماشي أكتر كمان مع نَص الآية وسياقها (حيث إن اليهودية والمسيحية بس هم اللي عندهم رسل ليُسألوا عنهم، مافيش معنى لموضوع سائر الطوائف اللي ذكره ابن كثير).

دوّرت كمان شوية لقيت روايتين؛ القرطبي قال: «أهل الذكر هم أهل العلم»، «العلماء» (مع إن ده مالوش أي علاقة بنص الآية ولا سياقها!)، لكن القرطبي قال، يبقى كل الناس اللي عايزين يحتكروا الإسلام دول خدوا رخصتهم من القرطبي؟!

الرواية التانية لمفسر آخر، ابن زيد: «أراد بالذكر القرآن؛ أي فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن»؛ وقال جابر الجعفي: «لما نزلت هذه الآية قال علي رضي الله عنه: «نحن أهل الذكر»».

بالرغم من أن الروايات دي بعيدة عن نص الآية وسياقها! لكن الرواية اللي حكاها ابن زيد قالت إن سيدنا علي قال: «نحن أهل

الذكـر»، فيبقى خلاص الشـيخ اللـي في التلفزيون وفـي الزاوية هو أهـل الذكر هـو كمان، هـو مَن قصد الرسـول عليه السـلام لما قال «نحن» إن كان قالها أصلا!

باللـه عليكـم بقـه، اللي انتـو قريتـوه ده يخلّي كل رجـال الدين بـالآلاف المؤلّفة يقولولكو إن همّ نفسـهم أهل الذكر اللي قصدهم الله في آية سورة الأنبياء؟ ده حتى يا أخي موقع دار الإفتاء المصرية علـى الإنترنت مكتوب عليه فوق كده ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْـلَ ٱلذِّكْرِ﴾ ده بقه اسـمه إيـه بالظبط؟ يعنـي ده اسـتعمال آية قـرآن بما يخالـف نصّها وسـياقها ومعناها الواضح، وكمان مجهود أغلب المفسّرين لخدمة أغراض شخصية ولّا لأ؟ إنت الحكم، إنت قول.

ده مش موضوعنا خالص على فكرة، ده كان مثال توضيحي بس، عشـان نشوف بيحصل إيه لمّا يُستهان بالفكر المنهجي الفلسفي في مسـائل الدين وازاي ده بيفـرّغ المواضيع من مضامينهـا وبيغيّر فيها بل بيشوّهها تماما!

أنا شـخصيا شـايف إن حـل أزمة التشـويه اللي لحـق بالخطاب الدينـي، أو بصريـح العبارة بالدين نفسـه بالرغم من إنـي عارف إن دي كلمـة مزعجـة لأغلـب الناس بس أنا شـايف إنهـا وصف دقيق جـدا للّي حصـل، لإن الدين مش منفصل عـن المؤمنين بيه، لو غيّر الناس الدين حيتغيّر على أيديهم، لو شـوّهوه حيتشـوّه على أيديهم. ولو أهل العلم الحقيقيين ما أنقذوش الدين من الجهل وضيق الأفق والاستغلال حيَفسد الدين في قلوب العباد وبالتالي يبقى فسد! أهم

الطرق لإنقاذ الدين من التشويه ده، هو إحياء الفلسفة الإسلاميّة، إحياء الفكر الفلسفي في المسائل الدينية تاني، عشان نقدر باستعماله نوقف النزيف اللي بتسببه الأفكار المتأسلمة (من ارتفاع نسب الملحدين وتاركي الدين، للتطرّف الديني، لأصحاب الدين الشكلي المظهري الخالي من المعنى والمضمون «والفلسفة»). لو أعاد المسلمون إحياء الفلسفة الإسلامية بروح العصر ده والدنيا الجديدة دي اللي كل حاجة فيها اتغيّرت عن ذلك العصر القديم اللي نقلوا منّه كل حاجة كما هي، حال الدول الإسلامية حيتقلب تماما، كل حياتهم حتتغيّر، لما فلسفتهم تتغيّر.

المؤمن المحب لدينه اللي بيشوف فيه طريقة لإصلاح حياة الناس وإسعادهم لازم يفهم إن الوسيلة لتحقيق ده هي إعادة العقل والروح لدين أصبح جامدا متصلّبا بيعاند المجتمع وبيعاند عقارب الساعة وبيسبب المشاكل والمعضلات اللي احنا عايشين فيها دلوقتي وغيرها كتير، ومش احنا بس، عايش فيها كل المجتمعات اللي عندها تيّارات سياسية «بيسمّوها» إسلامية!

وحتى اللي خايف من سطوة رجال الدين (أو الأسوأ المدّعين أنّهم رجال دين) أو السياسيين اللي بيقولوا إن عندهم مرجعية إسلامية! برضه لهؤلاء أقول: الدين مش حيختفي من سياسة أوطان المسلمين. وعلاج أزمة سلامَك انت كمان في المجتمعات دي، حتى لو انت مش مسلم أصلا أو مش مؤمن أساسا هو برضه إحياء الفلسفة الإسلامية تاني، عشان هي الوحيدة اللي ممكن فعلا توصل

بالمجتمع المليء بالفتنة والأحقاد والكراهية والعداء والتنافس المشين على السلطة والرغبة الجامحة في السطو على الدولة وعلى حريات الناس... إلخ إلخ، إلى حالة سلام يقدر يعيش فيها الجميع بتراضي. الفلسفة هي الأداة الوحيدة اللي تقدر تستنبط من الإسلام روحه وعقله وتعلّمهم للناس فترتقي أرواحهم وعقولهم فيبقى الدين حقق مراده من إصلاح الناس، مش يحصل العكس ويتشوّه الدين على أيدي الناس اللي جه «يهديهم».

وأخيرا الفايدة دي من إحياء الفلسفة الإسلامية بإعلاء قيم التساؤل والتحليل والجدل والتفكير العقلي المنطقي، مش حيستفيد منها الدين ولا المتديّنين بس بل المجتمع كلّه حيستفيد، لإن (زي ما أعتقد إننا متّفقين) المجتمع كلّه محتاج كل الحاجات دي عشان يقف عليها فيشوف أبعد بكتير من موطئ أقدامنا اللي بقينا باصّين عليه وبس بقالنا مئات سنين. ولو بدأت الثورة الفكرية الفلسفية الإسلامية دي كل المجتمعات المسلمة حيبدأ شكلها يتغيّر، لما طريقة تفكيرها ووجهات نظرها للأمور تتغيّر، بمساعدة الحركة الفكرية الدينية شخصيا؛ كما يتطلّب التاريخ، وكما يلحّ علينا العقل والمنطق، وكما أعتقد يرجو منّا الدين نفسه!

مافيش دين للفلسفة بس الدين لا يستقيم من غير فلسفة؛ برضه تفلسفوا، تصحّوا.

البداية

قصة الفلسفة كما نعرفها بتبدأ من عند الإغريق، مش عشان ماكانش فيه قبلهم فلسفة، أبدا الفلسفة عمرها من عمر البشرية، وقبل الإغريق قامت حضارات عظيمة في أركان الأرض؛ عند قدماء المصريين، بلاد الرافدين، أمريكا الجنوبية، الصين القديمة وغيرهم، ومافيش حضارة من غير فلسفة؛ لكن الحضارة الإغريقية قفزت قفزة مذهلة بالإنجاز البشري الحضاري في الأدب والفنون طبعا زي كل الحضارات ما عملت، لكن الأهم بكتير في «الفكر». الحضارة الإغريقية غيّرت فكر البشرية عن كل ما كان قبلها، قدّمت طريقة تفكير جديدة، طريقة نظر للأشياء جديدة، «فلسفة» جديدة.

الفلسفة الإغريقية بتنقسم لقسمين أساسيين، قبل سقراط وبعد سقراط. لسه سقراط عليه شوية خلّينا في اللي قبله. أوائل الفلاسفة الإغريق كان عندهم إنجازين مهمين جدا قدّموهم لحضارة البشر؛ أولا إنهم كانوا أول ناس ذكر التاريخ إنهم بيحاولوا يفهموا العالم

والدنيا اعتمادًا على التحليل المنطقي والمجهود العقلي من غير ما يبقوا بيحاولوا يرضوا ولا اللي بيؤمنوا بيه من الدين ولا المؤسسة الدينية، ولا الحاكم، ولا العادات والتقاليد (يعني الناس). ده في حد ذاته كان حاجة جديدة جدا على تاريخ حضارة الأرض، وواحد من أهم الأعمدة اللي اتبنى عليها العالم كما نعرفه: «الفكر الفلسفي الحر من كل القيود». والإنجاز التاني العظيم كان أنهم أول من بدأ يعلّم الناس أنهم يفكّروا بنفسهم هُمّ كمان، إنهم يلاقوا منطقهم الخاص. أساتذة الفلسفة الإغريق ماكانوش ولا بيطلبوا، ولا بيتوقّعوا من تلامذتهم إنّهم يفكّروا زيّهم، كانوا أول أساتذة في التاريخ المكتوب مايبقاش عندهم أفكار بيعلّموها لتلامذتهم عشان يحفظوها زي ما هي، بل كانوا بيحاولوا يخلّوا اللي بيتعلّموا منهم، يتعلّموا ازاي يفكّروا، ومنتج التفكير كان بيُترك لكل واحد يكون زي ما يكون، حسب طبيعته وقدراته ونوعه.

الإنجازين دول كانوا مرتبطين جدا ببعض، وكانوا لازم يحصلوا مع بعض؛ ماكانش ينفع الفكر يتحرر وتفضل طريقة التدريس زي ما هي بتناقض التحرر ده. ولما حصلوا الاتنين مع بعض فعلًا، تسببوا في نهضة عظيمة حصلت للمعرفة والفهم، استفادت منها طبعا كل العلوم في مراحل لاحقة.

الوقت اللي احنا بنتكلّم فيه ده هو القرن السادس قبل الميلاد، وأول فيلسوف عُرِف اسمه من الحقبة دي كان الإغريقي «تاليس» (Thales).. في أواخر القرن ده، حوالي ٥٨٠ قبل

الميلاد[1]. تاليس كان مهندس ويمكن ده كان من أسباب إن السؤال اللي سيطر على تفكيره وبدأ بيه رحلته في الاستكشاف كان «هوّ العالم معمول من إيه؟». أفكاره وصلت بيه إلى إنّه اعتقد إن كل ما في العالم معمول في الأصل من مكوّن واحد، المَية؛ لقى المية ممكن تتجمّد تبقى زي الحجر، ممكن تتبخر تبقى زي الهوا، المطر بينزل فَالأرض تطلّع زرع، كل كائن حي لازم يشرب مية؛ فقال يبقى المية هي المكوّن الأساسي لكل حاجة. (قارنوا بين ده وبين اللي نعرفه دلوقتي عن إن أجسامنا ٦٠ ٪ منها مَية).

وبعدين قال: «لو كل كتلة أرض حدودها المية، اللي هو البحر، يبقى أكيد كل أرض بتطفو فوق مية!»، فتصوّر أن كوكب الأرض (هو ماكانش عارف لسه إنه كوكب) عبارة عن حوض مية كبير مفرود، وكل الأرض اللي عايش عليها البني آدم عبارة عن جزر صغيرة أو عملاقة بتطفو فوق المية دي. وبعدين فكّر إن لو الأرض كلّها بتطفو فوق مية، يبقى أكيد هي طالعة من المية، يبقى أكيد كل حاجة معمولة من المية.

---

(١) تاليس كان أول سلسلة من فلاسفة شكلوا مدرسة فلسفية اتسمّت «The Milesian school» نسبةً إلى مدينة إغريقة في الوقت ده قريبة من أنطاليا في تركيا دلوقتي، لسه أتينا ماكانش ليها دور كبير في موضوع الفلسفة ده. وأهمية المدرسة دي بتيجي من إنجازاتها لإنها ماعندهاش إنجازات كتير بل من اللي حاولت توصلّه، والأهم كمان إنها كانت في اتصال مع أفكار بابل ومصر في الوقت ده، وهو ده اللي خلّاها تفتح أبواب جديدة وتتساءل أسئلة جديدة بسبب اتصالها بثقافات مختلفة.

تاليس كان عنده تلميذ اسمه أناكسيماندر (Anaximander)؛ يقال إنه كان أول من رسم خريطة، وعمل حسابات يحاول يحدد بيها حجم الشمس، روايات قالت إنه افتكر الشمس في حجم الأرض وروايات تانية قالت إنه افتكرها ٢٧ أو ٢٨ ضعف حجم الأرض[١].

هو اللي فكر في السؤال اللي في دماغ كتير منكو دلوقتي؛ قال لو الميه شايلة الأرض، يبقى لازم فيه حاجة شايلة الميه! ومش حنخلص بقه؛ فحل المشكلة دي بإنه تصوّر إن الأرض مافيش حاجة شايلاها، هي كتلة منفصلة عن أي حاجة تانية، على شكل «cylinder»، عاملة زي البرميل.

إحنا عايشين على السطح ده وبعدين في الأجناب فيه ميه، وبعدين تحت فيه أرض برضه. بس ماتصوّرش إن الأرض كَرَويةٌ تلفُّ حولَ نفسِها وكده. وشاف أناكسيماندر رافضا لنظرية تاليس إن مش ممكن يبقى فيه عنصر واحد هو المهيمن على بقية العناصر، لإنه كان حيغلبهم، كان حيطردهم؛ فشاف إن فيه مكوّن واحد أساسي لكل حاجة في العالم فعلا بس مش الميه ولا أي حاجة تانية بعينها، هو مكون واحد من شيء أزلي أبدي بيتحوّل إلى كل الأشكال المختلفة للمواد اللي نعرفها. (وخلوا بالكو إن العالم ماكانش مخلوق عند الإغريق، كان نتيجة تطوّر، فكرة خلق العالم ماوصلتش للثقافة دي غير مع اليهودية والمسيحية بعدها).

(١) كتلة الشمس في الحقيقة أكبر من كتلة الأرض بأكتر من مليون ضعف.

أناكسيماندر كان عنده تلميذ اسمه أناكسيمينيس (Anaximenes) كان شايف إن كل حاجة معمولة من الهوا؛ النار هوا بمواصفات خاصة، وبعدين تكثيف الهوا بدرجات مختلفة يعمل مية وتراب وحجر وهكذا؛ المهم إنه برضه ماكانش موافق على نظرية أستاذه، وكان بالنسباله واضح جدا إن الأرض مُسطّحة مش عاملة زي البرميل؛ طب وازاي متشعلقة في الهوا كده؟ قالّك: «زي ما غطا البراد لو المية بتغلي بيبقى زي ما يكون بيطفو فوق البرّاد، لإن البخار بيزقُّه لفوق. بنفس الطريقة الهوا بيخلق طاقة بتزُق الأرض من تحت عشان تشيلها وتحافظ على موقعها.

ومن الجدير بالذكر هنا بقه إن أناكسيمينيس ولمدة طويلة بعد ما مات، كان ناس كتير بيعتبروه أهم وتأثيره أكبر من أستاذه أناكسيماندر، طلاب أكتر بكتير كانوا بيبدءوا من النقطة اللي وصلّها التاني إن الأرض عاملة زي البرميل، عن الأول اللي كان شايف إن الأرض مفلطحة، بالرغم من إن طبعا الأول أناكسيماندر كان عنده نظرية أكثر وجاهة بكتير وكانت قطعا الأقرب للحقيقة.

فضل السيناريو اللي في المثال ده يتكرّر عبر تاريخ الفلسفة، ماكانتش بتمشي في خط مستقيم لقدّام أبدًا، بل أكتر كانت بتعمل حاجة كده زي إنها تمشي خطوتين قدام وبعدين خطوة لورا وبعدين خطوتين لقدام وخطوة للجنب وهكذا.

من أهم فلاسفة حقبة ما قبل سقراط بل الأهم من وجهة نظري لإنّه بدأ يطرح تصوّرات مختلفة شوية عمّن سبقوه، فيلسوف اسمه

هيراكتيليس (Heractulis)؛ وصل لقمة مجده في نص القرن السادس قبل الميلاد؛ الراجل ده مشهور في عالم الفلسفة بسبب فكرتين مهمتين؛ الأولى هي اللي سماها وحدة الأضداد (جمع ضد يعني)؛ شاف مثلا إن الطريق أعلى الجبل مش طريق مختلف ماشي عكس الطريق أسفل الجبل، بل همّ الاتنين جزء من نفس الطريق، تطلع الجبل وتنزله هي رحلة واحدة. لمّا حد يقول على كوباية نص مليانة، ده مش عكس إن واحد تاني يقول عليها نص فاضية، الاتنين مابيناقضوش بعض، بل هم الاتنين شايفين نفس الحقيقة، واحد شايفها من الحتة المليانة وواحد شايفها من الحتة الفاضية، لكن الاتنين واحد، جزء من حقيقة واحدة. ومعنى كده إن لو مافيش تناقض يبقى مافيش حقيقة.

شاف هيراكتيليس إن كل حاجة في الدنيا عبارة عن وحدة واحدة من حاجات عكس بعض أو متناقضة بشكل أو آخر. ومعنى كده من وجهة نظره إن الصراع مش ممكن تفاديه، لإن الصراع اللي بين كل المتناقضات دي، كل الحاجات اللي عكس بعض دول، همّ اللي بيتكوّن منهم العالم. «لولا الزلطتين ما الوقود إنضرم»[1] كما قالها صلاح جاهين؛ وهنا وصل «Heractulis» للفكرة التانية اللي اتشهر بيها، وهي إن الحقيقة مش حاجة ثابتة، بل كل حقيقة هي حاجة دائمة التغيّر، بناءً على المعطيات المتضادة مع بعض اللي بتشكّلها.

(١) لولا اختلاف الرأي يا محترم
لولا الزلطتين ما الوقود انضرم
ولولا فرعين ليف سوا مخاليف
كان حبل الود بينّا كيف انبرم

كل حاجة في الدنيا حتى الأشياء نفسها، الجماد، حتى البني آدم، كل كائن حي، الكون كلّه مابيثبتش على حالة واحدة ولا حتى ثانيتين ورا بعض، بل كل حاجة في الكون في حالة تغيّر دائم مابيقفش أبدا.

الفكـرة اللـي وصلّهـا «Heractulis» دي فكـرة عميقـة جـدا، وخصوصـا وهي طالعـة ٦ قرون قبـل الميلاد، ولكنهـا كمان فكرة مُقلقـة. البنـي آدم من أول خلقُه وهو بيحـاول بالفطرة يلاقي ثوابت يبنـي عليها أفكاره وإلا بيحـس إنه تايه، وبعدين تتولـد فكرة إن كل حاجـة في الدنيا دائمة التغير ومابتثبتـش على حالها أبدا، وإن التغيّر ده هـو القاعـدة الوحيـدة الثابتـة واللي بتحكـم كل القواعـد التانية المُحرّكـة للكون! ده إيه بقه؟ إنـت دلوقتي عادي يعني ممكن تقول لأصحابك: «دنيا مابتثبتش أبدا على حال»، لكن اللي احنا شـايفينه ده لمـا حصل سـاعتها كان تغييـر في طريقة تفكير البني آدم نفسـها. تغييـر التأثيـر بتاعه حيمتد عشـان يوصل لـكل جوانب حياة البشـر ويأثـر على مسـتقبلهم كلّهـم. خطوة مهمـة جدا في تاريخ البشـرية وكالعادة خَطّتها الفلسفة.

فيثاغورث[1]

(بتاع حساب المثلثات ده اللي بنبدأ دراسة الهندسة في المدارس بتعلُّم معادلته الشـهيرة)، قالت روايات كتيـر إن فيثاغورث كان ابن

(١) فيثاغـورث (Phythagoras) بـدأ عنده فصل جديد من فصول الفلسـفة الإغريقية نشاطها الأكبر، كان في جنوب إيطاليا حاليا، وكانت مدرسة دينية أكتر وعلمية أقل عما قبلها.

للإلـه أبوللو، كان راجـل عبقري، هو اللي اخترع فكـرة مربّع الرقم ومكعّبـه، الـ «square» والـ «cube» بتوع الأرقـام. هو اللي عمل أول معادلة حسـابية فـي التاريخ المكتوب، أول من اسـتعمل كلمة «فلسـفة» نفسـها، أول من اسـتخدم كلمة «الكون»، كان فيثاغورث واحـد مـن مؤسسـي الحضـارة الحديثـة مـع إنـه مـات سـنة ٥٠٠ قبل الميلاد.

من أهم إنجازات فيثاغورث إنه ربط الفلسـفة بالرياضيات. تأثير علـم الرياضيات، وبالتالي الهندسـة على الفلسـفة، كان تأثير عظيم الشـأن، وبدأ التأثيـر ده من عند فيثاغورث؛ علـم الرياضيات قاطع، حاسـم، متأكـد، مافيهوش مجـال للغلط من أول واحـد زائد واحد يساوي اتنين لحد الآخر خالص. وأهم سمة للرياضيات إنها بتُصنع بالتفكيـر بس، مـش بالملاحظـة زي بقيـة العلوم؛ فـي الطب مثلا، بيدرس الطبيب الحالـة دي والحالة دي والحالة دي وبعدين يلاقي حاجات مشـتركة فيعمل نظرية عن الأعراض المشتركة اللي شافها في الحـالات، يفهم المرض، ويبدأ يدوّر علـى علاج، فيجرّب كذا وبعدين كذا وبعدين كذا. سـاعات تمشي معاه ويلاقي إن ملاحظاته كلهـا بتوجّهه لناحية واحـدة من غير مفاجآت ولا ألغاز، وسـاعات علاجه ينفع مع نص الناس والنص التاني لأ، فيدوّر عالمشـترك بين دول ودول تاني، وساعات يقابل كام حالة كمان فيكتشف أصلا إنه كان غلطان من الأول فيبدأ يجرّب في اتجاه مختلف خالص وهكذا. في الرياضيات بقه، كل حاجة بتبدأ ببديهية مافيش كلام فيها، وبعدين تبدأ عملية استنتاج من البديهية دي جنب البديهية دي جنب البديهية

دي، الطريقة اللي بتتبني بيها الحقيقة في الرياضيات وبالتالي المنطق مختلفة تماما عن بقية العلوم؛ فَالرياضيات لما أثرت عالفلسفة خلّتها تفكّر بطريقة شبيهة، تبدأ بما هو بديهي وبعدين تستنتج منه؛ فده خلّى الفلاسفة بعد فترة طويلة مثلا يعتبروا إن حقوق البني آدم بديهية، فبعد ما بقت بديهية بقى لازم يلاقي طريقة عادلة عملية يدّي بيها الناس حقوقهم «البديهية» دي، وهكذا.

العلاقة دي هي السبب في إن على مر التاريخ كان من أعظم فلاسفة الأرض علماء رياضيات؛ ديكارت مثلا هو من اخترع الـ«graph» أو الرسم البياني، لايبنيتس (Leibniz) هو مكتشف التفاضل والتكامل، والأمثلة كتير جدا الفلاسفة استعملوا الرياضيات المليئة بالثوابت (يعني المنطق)، عشان يفكّروا في المسائل الفلسفية المليئة بالمتغيّرات، وكان بداية كل ده عند فيثاغورث.

بعد هيراكتيليس فضلوا الفلاسفة يلعبوا مع فكرة إن المعرفة دايما بتتطوّر وتتغير، لإن طبيعة كل الأشياء على طول بتتغير، فبديهي إن المعرفة تحاول تلحقها، تحاول تلحق الواقع المتغيّر. وبدأت الفلسفة تكشف للناس ازاي أي حقيقة يعرفها البني آدم هي مش حقيقة ثابتة فعلا، قد ما هي الحقيقة «اللي يعرفها»، باللي يقدر عليه، بإمكانيّاته، باللي يعرفه هو كمان؛ وازاي بعد شوية سواء كان هو نفس الشخص أو حد تاني ييجي بعده بيعرف أكتر. فَالحقيقة نفسها، الحقيقة شخصيا، ماتبقاش حقيقة خلاص، وتُستبدل بالحقيقة الجديدة اللي عرفها البني آدم، وتفضل دي هي حقيقة أي حاجة «اللي حتتغيّر أكيد لو عرف أكتر»، لحد ما يعرف فتتغير الحقيقة تاني وهكذا.

ماتنساش طول الوقت وانت بتسمع حواديت الفلسفة دي عينك المفروض تفضل على إيه، على ما كُتِب هذا الكتاب من أجله، خلّيك مراقب «طريقة التفكير» اللي بتغيّرها الفلسفة ولا يَقدِر على تغييرها سواها.

طبعًا اللي ذُكروا دول أمثلة قليّلة من فلاسفة عصر ما قبل سقراط وإن كانوا هم الأكثر تأثيرا، واحنا ماخُضناش كمان في أفكارهم أكتر من كده عشان مش موضوعنا يعني، عايزين بس نتأمل محطّات تَغيُّر الفكر دي، المحطات اللي كلّها خلقتها الفلسفة.

نقدر نلخّص اللي حصل للفلسفة الإغريقية قبل سقراط إن الأرضية اللي كانوا كل فلاسفة الحقبة دي واقفين عليها هي محاولة فهم طبيعة الكون؛ تأمّلوا قد إيه الكون لسه غامض بالنسبالنا إحنا لحد دلوقتي وتخيّلوا قد إيه كان غامض بالنسبالهم همّ بقه من ٣٠٠٠ لـ ٢٥٠٠ سنة!

شفنا ازاي في تصوّرات الأوائل عن طبيعة الكون ممكن المنطق يغلط، وشفنا ازاي ممكن يبقى المنطق سليم ويؤدي لنتايج سليمة منطقيا لكنها مزيّفة مش حقيقية. ولا لوم عليهم لإنهم لسه ماكانش عندهم العلم اللي يُمكّنهم من اختبار نظرياتهم دي. وخصوصا إن مجهودهم ماضاعش هباءً أبدا، محاولات تفسير طبيعة العالم هي اللي وصّلت الفلاسفة لإدراك حقيقة إن كل شيء دايما متغيّر، الحقيقة اللي إدراكها بدأ يغيّر في وجهة نظرهم للأمور، يغيّر «في طريقة تفكيرهم».

سقراط

تعالـوا دلوقتي بقه نروح عالمعلّم.. سُـقراط شـخصيا؛ سُـقراط يقولون عنّه إنه كان شـكله وحـش، ولكنّه حاد الذكاء، خفيف الدم، ساخر، وعنده كاريزما شخصية جذبت ليه أصحاب العقول في أثينا جميعُهُـم. سـقراط أول الفلاسـفة الإغريق العِظام اللـي يبقى أثيني المولـد. وعـاش فيهـا في عصرهـا الذهبي فـي قمة مجدهـا. إتولد حوالي ٤٧٠ قبل الميلاد ومات ٣٩٩ قبل الميلاد.

درس سـقراط وهو شـاب اللي بنسـمّيه دلوقتي فلسفات ما قبل سـقراط، وكان عنـده اعتراضيـن مهمين علـى كل الفلسـفات اللي كانـت مهمومة بفهم طبيعة الكـون دي؛ أولها إنها كانت بتتحرك في اتجاهـات مختلفة بل وكانت متناقضة مع بعض في أغلب الأحيان؛ واحـد يقـول الأرض مفلطحـة والتاني يقول لأ برميـل، واحد يقول كل حاجـة معمولـة من الميـة والتاني يقول من الهـوا والتالت يقول من الاتنين ويزوّد عليهم الأرض والنار وهكذا؛ وماكانش فيه وسيلة

للفصل بين النظريات دي؛ كلها أفكار وكلّها ماحدش يقدر يثبت صحتها من عدمه.

تاني اعتراض لسقراط على فلسفات ما قبل عصره كانت إنه شاف إنها عديمة القيمة، حتى لو أثبتنا صحّتها؛ حنعمل إيه يعني لما نعرف حجم الشمس، ولّا المسافة بينها وبين الأرض ولّا الأرض مكوّرة ولّا مسطّحة ولّا غيره! هكذا فكّر سُقراط. فكر إن النوع ده من أنواع التفكير مالوش أثر على سلوك البني آدم، واللي احنا فعلا عايزينه هو إننا نُدير حياتنا بشكل أحسن. شاف إن شغلة الفلسفة هي إنها تساعدنا في إجابة السؤال الأهم على الإطلاق «نعيش ازاي؟». يبقى الأسئلة اللي محتاجين فعلا نجاوب عليها هي أسئلة زي: إيه هو الحق؟ إيه هو الصح؟ إيه هو الخير؟ عشان لو جاوبنا الأسئلة اللي من النوع ده حياتنا حتتغيّر للأحسن، فيبقى فعلا فيه فايدة بتعود علينا من ورا التفلسف والبحث والاستكشاف.

سقراط لم يدّعي إن عنده إجابات للأسئلة اللي كان مهتم بيها دي، بس كمان كان شايف إن ماحدّش تاني عنده إجاباتها، وشاف إن شغلة الفلسفة الأصلية هي إنها تحاول تلاقي تلك الإجابات.

قيل عن سقراط إنه أحكم الرجال، ليه؟ لإنه كان الوحيد اللي عارف إنه مايعرفش. بداية المعرفة الحقيقية إنك تعرف إنك ماتعرفش.

ماكانـش فيه في الوقت ده معرفـة حقيقية بطبيعة الكون وده اللي كان مجنّن فلاسـفة الإغريق، لكن كمان ماكانـش فيه معرفة حقيقية بما يخص حياة الناس نفسـها، وأول واحد يحـاول يغيّر بقه الوضع ده كان سقراط.

جَـابَ سـقراط أنحـاء أتينـا القديمـة يثيـر أسـئلة عـن الأخلاق والإنسانية والرحمة والعدل والسياسة مع أي حد كان عنده استعداد يسـمعه. وبسـبب شـخصيته وكاريزمته وذكاؤه كانوا الناس بيتلموا حواليـه فعـلا وخصوصـا الشـباب. طريقتـه كانـت دايمـا واحـدة، كان يمسـك حاجـة مـن الحاجـات الكتير اللـي الناس بيستسـهلوا ومابيفكّـروش فيهم دول ويسـأل الناس: إيه هـي الصداقة؟ إيه هي الشـجاعة؟ إيـه هـي التقوى؟ ولمـا حد يقولّـه إنه عـارف إجابة أي سـؤال هو بيسـأله، كان يتفلسـف عليـه طبعا، ويفضـل وراه يمتحن إجابته. فواحد مثلا يقوله إن الشجاعة هي الصمود. فيسأله سقراط، طب والعنـاد؟ ما العناد صمود وإصرار وثبـات عالموقف، هل هي دي الشـجاعة؟ هـل العناد صفـة حميدة أصلًا؟ ولـو هي مش صفة حميـدة إزاي ممكـن يبقـى عندهـا صفـات مشـتركة مع الشـجاعة شـخصيا بكل مـا فيها من نبـل وتضحية وإقدام؟ وهكذا، وسـاعتها كان صاحـب الإجابـة يا إمـا يتراجع عـن إجابته يا إما يحـاول يقدّم إجابـة تانيـة.. وهكذا. وطبعـا كان اللـي بيحصل فـي أغلب أغلب الأحيـان إذا ماكانش كلّها، إن الإجابة الأصلية اللي بيطلّعها الواحد مـن غير تفكيـر عميق ولا جدل ولا خُد وهـات، كانت بتبقى ناقصة

أو معيوبة. واللي كانوا بيقفوا في الدواير دي يتفرّجوا ويسمعوا كانوا همَّ كمان بيكتشفوا إن ماعندهمش إجابات للأسئلة اللي كانت تبدو بالنسبالهم ومن دقايق قليلة، أسئلة بسيطة؛ بيكتشفوا مثلا إنهم مايقدروش يعرّفوا الشجاعة ولا حاجة، وشرحه كتير جدا من المفاهيم الإنسانية اللي ماكانتش لسه الحضارة لقت وقت وبراح تفكّر فيها وتنظّر عنها.

اشتهرت الأسئلة السقراطية دي في أنحاء أتينا وضربت عصفورين مهمين بحجر واحد، أولا عرّفت الناس إنهم مايعرفوش. والعصفور التاني اللي ضربه سقراط هو إن الأسئلة دي خلّت كتير من عامة الناس تنشغل بمسائل فلسفية ماكانوش أبدا بيفكّروا فيها قبل كده، خلّتهم يتناقشوا ويختلفوا ويتفقوا، خلّتهم يفكّروا.

سقراط كان نادرا ما بيدّي إجابات نهائية على أسئلته، كان بيفضّل إن المسألة تفضل دايما في إطار الجدل العقلي اللي مش مهم عنده يوصل لإجابة نهائية أصلا، المهم إن العقل يشتغل في محاولة حقيقية للمعرفة، ألا وهو قلب القلب بتاع موضوع الفلسفة ده كلّه على بعضه. فاقتصر دور سقراط على إنه يَدفع الناس إنهم يفكّروا في المسائل المختلفة عشان يقدّروا صعوبة الوصول ليقين يخصّها، عشان مايفتكروش إن المعرفة والفهم حاجات سهلة، عشان يقدّروا قيمة الفلسفة.

سقراط لما كان بيسأل عن معنى العدالة مثلا، ماكانش عايز يعرّفها ولا حاجة، هو كان بيسمع الناس بيستعملوا كلمة «كبيرة» زي دي، فيقولوا ده قانون عادل أو ده قرار مش عادل وهكذا؛ فشاف إن فيه حاجة ما، كل من يذكر الكلمة دي حاسس بوجودها، وده خلّاه يتصوّر العدل نفسه على إنه أكتر من فكرة، هو حقيقة -بالرغم من إنه مش شيء مادي- بس فيه حاجة حقيقية فعلا اسمها العدل. هي مش فكرة خالقها الإنسان، لأ حقيقة، وبيحاول هوّ كنموذج للبني آدم، إنه يستكشفها ويفهمها. زائد طبعا إنه كان بيحاول يعدي الناس بالرغبة دي في المعرفة والتفكير والفهم.

القاضي الفيلسوف

تعالوا نقف شوية نتأمل كويس فكرة سقراط دي، بداية إدراك البني آدم إن فيه حاجات مش نسبية (بالرغم من إن كل حاجة مخلوطة بأشياء نسبية فعلا)، النسبية اللي بتخلقها الظروف المختلفة المحيطة بأي حالة. يعني مثلا واحنا بنفكّر في مفهوم العدل ده؛ لو لقينا واحد سرق، سرق حاجة مش من حقّه، يعني ارتكب جريمة أهه، لو جينا بقه نصلّح الجريمة دي باستخدام «العدل» حنلاقي الأول إن من البديهي إن اللي اتسرق يرجع لصاحبه، ولو ماكانش ينفع يرجع يبقى نعاقب اللي سرق، سهلة. «تبدو» بس سهلة، لإننا عشان نحقق العدل فعلا، أو في الحقيقة عشان نحاول بس نقترب فعلا من العدل الحقيقي المطلق شخصيا، لازم نحفر أعمق من كده، لازم نسأل أكتر من كده. فبدأت فلسفة القانون تقول مثلا إن حتى لو اللي سرق حاجة رجّعها، حق صاحبها رجع أهه، أو في الحقيقة جزء من حقّه، لإن بقية حقّه إن الناس تحترم حق ملكيّته لحاجته، عدم احترام حق الملكية تبقى عقوبته إيه؟ طب بعيدا عن الشخص صاحب الحق

خالص، هل من حق المجتمع إنه يعاقب اللي سرق لإنه كسر قاعدة من القواعد اللي بيقوم عليها المجتمع؟ لو كل الناس عملت زيّه مش حيبقى فيه حقوق ولا قانون يصونها، يبقى لازم نرجّع حق المجتمع (الحق المدني زي ما بيسمّوه في القانون). طيّب، خلاص كده العدل خلص؟ حققنا العدل المطلق؟ أكيد لأ، لإن العدل مش بس عن حقوق اللي اتسرق واللي اتضرب... إلخ، العقوبة كمان اللي بتقع على مرتكب الجريمة لازم تبقى عادلة، لإنّه لسه جزء من المجتمع وله حقوق ماضاعتش كلّها ولا حاجة لما ارتكب جريمة أو غلطة أو غيره. لازم نذاكر الظروف اللي خلّته يرتكب الجريمة دي، لما نلاقي مثلا حد سرق عشان عياله جعانين ومش قادر يأكّلهم فسرقلهم أكل؛ حالة مختلفة خالص أهه. الحالة اللي مختلفة مش العدل اللي مختلف خلي بالكو، العدل مطلق حقيقي ثابت، طريقتنا احنا في محاولة تحقيقه هي اللي حتتغير دلوقتي لإن الظرف اللي بنفكر فيه اتغير. فيه واحد ممكن يقول لأ، مالناش دعوة هو سرق ليه؟ السرقة جريمة، فَاللي يرتكبها يتعاقب، ما هو ممكن يشحت بدل ما يسرق، أقل حاجة يعني! مافيش كلام في الموضوع وماتهمّنيش ظروفه عاملة ازاي، اللي يرتكب جريمة يتعاقب. الراجل ده دلوقتي وهو شايف كده مش غرضه إنه يظلم حد، بالعكس هو غرضه يحقق العدل في المجتمع بتاعه، يحقق العدل للي اتسرق منه، وبيعتمد في وجهة نظره دي على كلام منطقي برضه، يعني الراجل منطقي وغرضه أخلاقي ونبيل أهه، أمال إيه الغلط اللي هو عمله؟

الغلط اللي هو عمله إنه اشتغل قاضي من غير ما يبقى فيلسوف! كان حيعمل إيه مختلف القاضي الفيلسوف طيّب؟ كان الأول مستحيل يقول مالناش دعوة بظروفه، لإن الفيلسوف عارف كويس إن في العالم اللي كلّه متغيّر ومابيثبتش أبدا على حال، الواحد عشان يحقّق العدل، اللي هو أصلا ثابت ومطلق، لازم يذاكر المتغيّر كويس، لازم يفهم كل الظرف اللي كان فيه مرتكب الجريمة قبل ما يطبّق عليه ما يظن أنه العدل. فيسأل بقه: هو سرق ليه؟ عشان يأكّل عياله فعلا ولّا هو عنده أكل في البيت وبيسرق عشان يبقى معاه فلوس؟ طب هو سرق قبل كده ولّا لأ؟ كانت ظروفه عاملة ازاي لما سرق قبل كده؟ طب جرّب يشحت فعلا ولّا لأ؟ طب هو لو شحت حيعرف يأكّل عياله ولّا لأ؟ وهو أصلا إيه اللي خلّاه مابيشتغلش؟ الناس اللي عندهم شغل ماشغّلوهوش ليه؟ عشان مافيش شغل ولّا هو عنده عيب بيخلّي الناس مايشغّلوهوش؟ طب مين السبب في الأسباب اللي عشانها ماحدش شغّله؟ تعليمه كان وحش؟ مدرسته كانت وحشة؟ ماحدّش علّمه يشتغل؟ أبوه وامّه طيب السبب؟ إمكانياته العقلية أو الجسدية؟ وبعدين إيه ده! يشحت ازاي أصلا صحيح؟! التسوّل ده بيهين كرامة البني آدم، إزاي سألت إذا كان ممكن يشحت فيأكّل عياله؟! إزاي المجتمع ده فشل في إنه ينقذ الراجل ده وعياله من الجوع لحد ما يضطر يسرق عشان ياكل هو وعياله؟ مين المسئول عن كده؟ إلخ إلخ إلخ لحد فين؟ لحد ما يبقى عارف بالظبط جريمة الشخص ده هي إيه، فيحاول يعرف

بالظبط بالظبط يستحق عقاب ولّا لأ، ولو يستحق عقاب يستحق عقاب شكله عامل ازاي، وفيه حد تاني يستحق عقاب معاه ولّا لأ، ولّا هي أصلا دي مش جريمته خالص بل جريمة حد تاني!

القاضي والمشرّع وفيلسوف القانون لما يعمل كده مش أكيد بيوصل للعدل خلي بالك، لكن ما دام عمل كده، ما دام اختار الطريق ده في محاولة الوصول يبقى بيحاول يقرّب من العدل، الدرس المستفاد أظن واضح، حكتبهولكو ببنط عريض أهُه عشان تفتكروه:

العدل الحقيقي المطلق صعب جدا ويمكن مستحيل الوصول إليه، بنحاول بس نقرّب منه، وبرضه مستحيل ننجح من غير فلسفة.

نرجع لسقراط اللي فضل ينشر أسئلته في أنحاء أتينا القديمة، فضل يكشف للعامة بعد ما يفهموا بالتأمل والتفلسف والجدل، جهل بعض الساسة ورجال الدولة بل وحتّى جهل رجال الدين؛ وبدأ يبقى محط أنظار الجميع اللي منهم كانوا بيقدّروه جدا وشايفين قيمة عظيمة للي هو بيعمله وكمان اللي منهم كانوا بيكرهوه وبيكرهوا اللي بيتسبب فيه أكيد.

انتهى الأمر بسقراط عقابا له على تشجيع الناس إنهم يفكّروا ويتساءلوا، إلى إنه اتقبض عليه بتهمة «إفساد عقول الشباب»، وعدم

الإيمـان بآلهة المدينـة. وحكمت عليـه المحكمة بالموت بالسـم. ومات سقراط.

سـقراط بالمناسـبة ماتنفّذش فيه حكم الإعدام أول ما طلع، كان فيـه نوع من أنـواع الاحتفال الديني أخّر تنفيـذ الحكم؛ وفي الحوار المسـمّى كريتو (Crito) (على اسـم أحـد أصدقاء أفلاطـون) اللي كتبـه أرسـطو لاحقـا -زي ما حنعرف بعد شـوية- حكـى أفلاطون بالتفصيـل ازاي أصدقـاء سـقراط حاولوا كتيـر يقنعوه إنهم يِرْشـوا حرّاسـه ويخلّـوه يهرب في الفتـرة بين إصدار الحكـم وتنفيذه دي. والحوار بين سـقراط وأصدقاؤه كان إن هـمّ عمّالين يقنعوه إنه مِش مفروض يستسـلم للمـوت بقانون ظالم، لازم يعيش عشـان ولاده، عشـان تلامذته، لازم يهرب. وهو بيرُد بالمعضلات الأخلاقية اللي رفـض بسـببها فكرة إنـه يهرب؛ معضلـة كسـر القانـون أولا! (أيوا الراجـل فيلسـوف الأخـلاق ده كان عنـده مشـكلة كبيـرة إنه يهرب مـن حكم ظالم مفتري، بالإعدام شـخصيا عشـان هو حكم أصدره القانون، وكسـر القانون بالنسـباله كان عمل غيـر أخلاقي!)، ده غير معضلـة تعريـض أصدقاؤه للخطـر لو خلّاهم يهرّبوه فعـلا، ده غير معضلـة إنه شـاف مافيش فرق بيـن المنفى اللي حيسـتخبى فيه لما يهرب والموت، كان أحسـن لسـقراط إنه يموت عـن إنه يعيش ربع حياة، يخون مبادئ هو مؤمن بيها عشان يعيشها.

سـقراط صحيح كان بيقول إنه ماعندوش إجابات للأسـئلة اللي كان بيطرحها، بس ده كان في الحقيقة كمان على سـبيل التفلسـف،

لإنّـه كان عنده، كان عنـده أهم من الإجابـات؛ كان عنده فكرة عايز يوصّلها للناس، كان عايزهم يفكّروا عشان يحاولوا يوصلوا لحقيقة الأشـياء بدل ما يتعاملوا معاها بتهاون واستسـهال. وكانت فلسـفته زي ما تأكّدنا بعد محاكمته بتترجم لمبادئ، وكان ماعندوش القدرة إنه يخونها حتى لو كان التمن حياته.

كانَ سُقراط فيلسوفًا

كان شـايف سُـقراط إن أهـم مـا يملـك البنـي آدم هـو روحـه، وبالمقارنة مع الروح، كل حاجة تانية تبقى عديمة القيمة. ماشـافش إنه خسر لما اتُّهم ظلما وحُكِم عليه بالإعدام ظلمًا كمان؛ لإنه شاف إنه حيموت وروحه سـليمة، لإنه لم يتخلّى عـن مبادئه ولا ما يؤمن بيه. شـاف سـقراط إن الناس مـش مفروض يتعاطفوا مـع اللي وقع عليـه ظلم أبـدا، بل يتعاطفـوا مع اللي ظلمـه؛ لأن الظالـم هو اللي بيخسر بعض روحه، في حين إن المظلوم بيقع عليه ضرر بس، لكن روحـه لأنه لم يخُنها بأذية غيره، لا تُمس. ولو روحك ماحصلّهاش حاجة يبقى انت ماحصلّكش حاجة.

سـقراط كان عنـده قناعة أخرى مهمـة جدا؛ شـاف إن ماحدّش بيعمـل غلـط قاصدًا وهـو عارف إنه غلـط، بل معنى إنـه بيعمله هو إنه مش مسـتوعب فعلا إنه غلط، وإنه لـو أدرك إدراك كامل حقيقي لغلطه ده مش حيعمله. وبالتالي تبقى الفضيلة عند سـقراط مربوطة بالمعرفة. لو فعلًا عرفت إيه الحق حتحققه.

وده كان الدافع الأصلي ورا أسئلة سقراط لأهل أتينا؛ شاف إننا لو سألنا نفسنا عن معنى العدالة وعرفنا نجاوب؛ حنلاقي تصرّفاتنا بقت متأثّرة بفهمنا لفكرة العدالة دي وبالتالي حنظلم بعض أقل بكتير وكذا على كل المفاهيم الفلسفية. فيبقى عند سقراط المعرفة عن العدل والفضائل عموما هي جزء لا يتجزأ من ممارسة الناس للفضائل دي والتزامهم بيها. اللي يعرف حيعمل واللي مايعرفش «ماحيعملش».

أهمية سقراط كفيلسوف بالرغم من إنه ماكتبش ولا حاجة من أفكاره وكل اللي نملكه عنه هو اللي كتبه عنه تلامذته المخلصين وعلى رأسهم أفلاطون؛ بتيجي من إنه كان أول فيلسوف سجّل التاريخ اهتمامه العظيم ده بمسألة الأخلاق اللي بتحكم كل تصرّفات البني آدم (الأخلاق اللي هدفها إرضاء النفس والضمير مش المجتمع ولا الآلهة) سقراط ماكانش مستعد يغيّر قناعاته من أجل إرضاء المجتمع، وكان مستعد يضحّي بحياته نفسها عشان اللي مقتنع بيه، بل إنه عمل كده فعلا، باختياره وكامل إرادته؛ كان أحب إليه وأسهل إنه يتقتل ولا إنه يغيّر معتقده اللي شايف فيه صواب، بل وإنه حتى ماقدرش يكسر القانون حتى وهو القانون بيظلمه ويعدمه بلا وجه حق. كانَ سقراط أول فيلسوف أخلاق في التاريخ المكتوب.

سقراط كان عنده كمان إنجاز حضاري مهم جدا للفلسفة ولتاريخ الدنيا اللي جت بعده؛ إنه كان من أوائل من أقرّوا بإن كل

حاجة في الدنيا خاضعة للتساؤل. بما فيها ما يتصوّره أي حد على إنه إجابات للأسئلة، حتى الإجابات، كل الإجابات لازم تفضل خاضعة للتساؤل.

أسس سقراط بأسئلته الكتيرة ما يسمّى بـ«الجدلية» -اللي هي طريقة بتستعمل الجدل والأسئلة والأجوبة في محاولة الوصول لحقيقة الأشياء اللي مابتبانش من بره كده- وفضلت دي من عند سقراط ولحد النهارده وسيلة تعليم قيمة جدا. ومتسمية بإسمه؛ الطريقة السقراطية في التعليم والتعلّم. مابتنفعش صحيح في توصيل معلومات، لكنها عظيمة القيمة في إنها تخلّي حد يراجع قناعاته ويختبرها وهو بيجاوب على أسئلة تخصّها، بتنفع جدا في رسم صورة أوضح عن أي حاجة ممكن تتشاف من زوايا أخلاقية مختلفة، بتنفع جدا في الفلسفة.

فيه ناس بيعتبروا سقراط أعظم فلاسفة الأرض؛ وفيه ناس تانيين بيشوفوا حد تاني على إنه الأجدر باللقب ده؛ أعظم فلاسفة الأرض برضه، أفلاطون.

أفلاطون

فيه مقولة عن أفلاطون إن كل الفلسفة الغربية كانت الهوامش بتاعته؛ وده مش مقصود حرفيا طبعا بس المقصود إنه رسم بكتاباته مسار الفلسفة الغربية كلها مش بس حتى فلسفة الأخلاق اللي أبدع فيها؛ ومشيت الفلسفة الغربية في المسار ده اللي رسمه أفلاطون ٤٠٠ سنة قبل الميلاد لحد النهارده مرورا بكل العالم اللي اتّرجم ليه شغل أفلاطون بما فيهم العرب.

أفلاطون تلميذ سقراط كان أول فيلسوف في تاريخ البشرية يكتب كل شغله بنفسه، ويوصل شغله عبر التاريخ زي ما اتكتب بالظبط.

كان عنده ٣١ سنة لما اتعدم أستاذه ومعلّمه سقراط بالسم، ٣٩٩ قبل الميلاد، وحضر سقراط كل جلسات محاكمة أستاذه، وأثرت فيه جدا، لإنه كان بيشوف أستاذه على إنه أحسن وأحكم وأعدل بني آدم في الدنيا. وبعد ما مات سقراط بدأ أفلاطون يكتب حواراته الفلسفية الشهيرة، الـ «dialogues»، سقراط كان

محور النقاش فـي أغلبها لكن طبعا كان موجود في كل الحوارات، سـائلا متسائلا وفيلسـوفا، بيدوّر على إجابات لأسئلته في الأخلاق وفي السياسة.

أفلاطـون كان عنده دافعين مهمين لكتابة الحوارات اللي بتطرح أفكار أستاذه دي؛ الأول كان تحدي، إنه كان عايز يحافظ على شغل سـقراط بإنه يكتبه، رغما عن أنف من أعدموه بسـبب أفكاره، وثانيا إنه كان عايز ينشـر أفكار سقراط عشان الناس تعرفه أحسن فينضّف سمعته من تهمة إفساد عقول الشباب اللي اتعدَم بسببها.

مـع مـرور الوقـت بـدأت مصـادر الأفـكار بتاعـة الحـوارات الأفلاطونيـة دي تتغير شـوية، الحوارات الأولى كان فيها شـخصية سـقراط قريبة جدا من شخصية سقراط الحقيقية. بيسأل نفس أسئلة سـقراط، ويرد نفس الردود اللي ردّها سـقراط؛ بفروق بسـيطة بس (اللـي اتخلقت لما اتحوّلت الأفكار دي لدراما). وبعد ما المخزون السـقراطي اللي عنده بدأ يخلص، لقى إن بقى فيه جمهور متحمس للحـوارات دي، فكمّـل الحـوارات بنفـس شـخصية البطـل الدائم سـقراط اللـي النـاس حبوهـا، بس بدأ يحـط أفكاره هو على لسـان بطله، وهنا فيه معضلة بديعة الحقيقة، إن دارسي الفلسفة ماقدروش أبدًا يرسـموا خط واضح فاصل بين الاتنيـن، ماحدش ممكن يتأكّد إذا كانـت أي فكـرة طرحت في الحـوارات هي فكرة سـقراط فعلا ولّا فكرة أفلاطون حطّها على لسـان بطله سقراط، الاتنين أفكارهم

اتضفّروا في بعض واتحوّلوا لحاجة واحدة. وإن كانوا الأغلبية متّفقين إن سقراط الحقيقي هو اللي أكتر اهتمامه كان مُنصَب على الأسئلة الأخلاقية اللي تخص العدالة والفضيلة، اللي بتحاول تخدم السؤال السقراطي الأهم واللي بتؤدي إليه كل الطرق: «إزاي المفروض نعيش؟»، ومتّفق أغلب دارسي الفلسفة إن الحوارات الأولى كان فيها من سقراط وأفكاره وروحه أكتر بكتير من الحوارات الأخيرة، نقدر نقول إنه بدأ من عند سقراط وانتهى عند نفسه.

سقراط الحوارات الأولى كان شبه سقراط الحقيقي، فيلسوف مهتم وفقط بفلسفة الأخلاق وفلسفة السياسة، وماقتربش أبدًا من الفلسفات المعنية بطبيعة العالم. حكم منهج تفكيره زي ما ذكرنا، قناعته بإن الفضيلة مربوطة بالمعرفة، كل ما يعرف البني آدم أكتر عن الحق والعدل والفضيلة كل ما حيمارسهم أحسن. أما سقراط في الحوارات الأخيرة اللي كتبها أفلاطون على لسانه، كان مهتم بكل جوانب الحياة وكل الفلسفات اللي تخصها بأفق أوسع بيشمل الأخلاق لكن مش محصور فيها بل طموحه في الفهم والمعرفة أكبر بكتير منها.

اعتبر أفلاطون إن الرياضيات والفيزيا هم مفاتيح فهم طبيعة العالم، وكتب على باب مدرسته:

«Let no one enter here, who is ignorant of mathematics»

الجاهل بالرياضيات (وفي أقوال أخرى: بالهندسة) مايدخلش هنا أصلًا. لإن الفلسفة بتتطلّب اعتماد على علم المنطق؛ والمنطق هو رياضيات الأفكار والمفاهيم.

رفض أفلاطون نظرية أستاذه بتاعة ارتباط الفضيلة بالمعرفة عن الصح والغلط، شاف إن البني آدم بيرتكب أخطاء وهو عارف إنها أخطاء لعيوب ما في نفسه، بس اتفق معاه تماما في نظرته لإن الشر بيئذي من ارتكبه لإن الضرر الحقيقي الوحيد اللي ممكن يلحق بالبني آدم هو ضرر روحه. حاجة شبه «يا بخت من بات مغلوب ولا باتش غالب» كده ☺

التزم كمان أفلاطون طول الوقت وهو بيكتب حواراته السقراطية بمبادئ أستاذه؛ إن كل واحد لازم يفكّر لنفسه، مافيش أي فكرة مسلّم بيها، كل حاجة في الدنيا خاضعة للتساؤل والاستفهام وهكذا. وإيمانه بالمبادئ دي هو اللي خلّاه بعد ما عرض شغل سقراط في حواراته، بدأ يحط شغله هو وأفكاره على لسان سقراط بطل حواراته زي ما علّمه سقراط نفسه.

أفلاطون اللي سُمي بالمُعلّم الأول، عاش بعد سقراط ما اتعدم ٥٠ سنة كاملة كتب فيهم الـ «Dialogues» بتاعته اللي كانوا حوالي ٣٦؛ كانوا بيختلفوا في أطوالهم من ٢٠ صفحة لـ ٣٠٠ صفحة مثلا من صفحات الكتب اللي احنا نعرفها. أشهر الحوارات على الإطلاق كان «The Republic» (الجمهورية).

كتب فيها عن طبيعة العدالة وتصوّره عن الدولة العادلة؛ والكتاب ده ومعاه كتاب تاني بعنوان «Laws» أو «القوانين»، هم أطولهم وأكتر اتنين فيهم ممكن يتسمّوا كتب يعني، مش عشان الطول بس، بل كمان عشان طريقة كتابتهم. ومن أشهرهم «The Symposium» اللي هي زي كده قعدة الحظ لامؤاخذة؛ كتب فيه أفلاطون عن طبيعة الحب.

الحوارات دي في رأي الكثيرين من أهم ما كُتب من أدب في تاريخ الحضارة الغربية كلها، وكانت مكتوبة بلغة رائعة كمان خلت أفلاطون فنان مبدع مش بس فيلسوف، وكانت أكثرها إبداعا في عين كتير من تلامذته هي الحوارات اللي كتبها على لسان أفلاطون في «المحاكمة»، اللي زي ما قلنا أثرت فيه بشكل عميق جدا وهو بيتابعها، وغيّرت فيه وفي نظرته للعالم.

أفلاطون عمل أول كلية في تاريخ الغرب، الأكاديمية بتاعته، اللي كانت في بيته يعني بس كانت أول أكاديمية لدراسة الفلسفة في تاريخ الأرض.

أكتر حاجة عُرف بيها أفلاطون كانت نظريته عن مفاهيم القيم والأخلاق، زي العدل والحق والخير؛ كنا اتكلّمنا ازاي سقراط لمّا كان بيسأل «إيه هو الحق؟ أو إيه هي الشجاعة؟»... إلخ، ماكانش بيحاول يعرّفهم ويحدّدهم، بل كان بيحاول يستكشف وبالتالي يفهم بشكل أحسن طبيعة المفاهيم المجرّدة دي، اللي بالنسباله

ليها وجود حقيقي بالرغم من إن مالهاش وجود مادي. مش مرتبطة بزمن أو مكان أو ظرف بس موجودة دايمًا وكل ما على البني آدم إنه يكتشفها. فَالفعل اللي ممكن نوصفه بالشجاعة أو الحاجة اللي نوصفها بالجمال مش مطلقة كده، بل بياخدوا الأوصاف دي من اقترابهم من الحقيقة المطلقة المسمّاة بالجمال والحقيقة المطلقة اللي اسمها شجاعة وهكذا.

خَد بقه أفلاطون النظرية دي من إطار القيم والأخلاق وراح مطبّقها على كل حاجة في الوجود. فعند أفلاطون كل حاجة بلا استثناء في الحياة هي نسخة فانية سريعة الزوال من حاجة تانية في جزء آخر من الوجود لا تفنى ولا تتغيّر وأبدية.

دعم أفلاطون تصوّره ده بحُجج كتير من مصادر مختلفة، زي مثلا إنه شاف إن كل ما البني آدم يدرس الطبيعة (الفيزيا) أكتر، بيتّضحله أكتر العلاقات الهندسية الحسابية اللي رابطة الكون المادي ببعضه، العلاقات اللي هي سر تناغم ونظام ودقة الكون. اللي هو يعني اللي نقدر نفهمه دلوقتي على إن كل الطبيعة، كل الفيزيا ممكن تتّرجم لمعادلات حسابية.

اتّبع خطى فيثاغورث وشاف أفلاطون إن الكون كلّه اللي ظاهرُه ممكن يبان عليه أحيانًا إنه فوضوي أو مش مرتّب هو في الحقيقة بيحكمه نظام متقن جدا ومُرتّب جدا ومتوازن لأقصى درجة، لإنّه محكوم بنظام حسابي هندسي يصل إلى الكمال. مش ممكن العين

تشوف النظام الكامل ده، لكن العقل ممكن يُدركه. كل ما نعرف عن الكون أكتر ندرك كماله أكتر. وأهم ما في الموضوع إن كمال النظام الهندسي اللي بيحكم الكون ده، موجود، وحقيقي، سواء أدركناه إحنا أو لأ. زي بالظبط حقيقة مفاهيم العدل والحق والخير والجمال اللي هو بنى النظرية بدايةً منهم. زي بالظبط أي حاجة في الفضاء مثلا، كواكب، سدوم، نجوم أي حاجة، قبل ما نعرف عنها ونفهمها هي موجودة برضه، ولما احنا نبقى جاهزين بنقدر نكتشفها، وكذلك الرياضيات وكذلك الحساب وكذلك العلوم وكذلك النظام اللي بيدير الكون، كل حاجة مطلقة وإدراكنا إحنا ليها هو اللي قاصر. فَالمعرفة دايما ناقصة والحقيقة دايما بعيدة.

جمع أفلاطون أحسن علماء الرياضيات في عصره، وتحت المظلة الأفلاطونية دي حصلت فراسخ من التقدّم والتطوّر للرياضيات وبالتالي لِما نسمّيه دلوقتي العلوم، وكلّ ده كان في الحقبة دي من التاريخ جزء لا يتجزّأ من الفلسفة. الفلسفة هي اللي خلت الحساب والرياضيات حجر أساس تبني عليه ثورتها الفكرية المعرفية، وبدأت الثورة دي تنتقل لكل العلوم واحد بعد التاني. الفلسفة اتغيّرت، سببت تغيُّر في طريقة التفكير، فحصلت ثورة معرفية.

أفلاطون شاف إن العالم المادي اللي احنا عايشين فيه ده، اللي فيه كل حاجة ناقصة وبتبوظ وبتموت وبتفنى، ما هو إلا ترجمة ما لعالم تاني مابيحصلش فيه كده. وخلق ده عند أفلاطون تصوّر

إن حقيقة الكون هو إنه متقسم لاتنين عوالم؛ العالم المادي الحسي اللي بنقدر نشوفه، ونعيشه، العالم اللي فيه كل حاجة متغيّرة وكل حاجة ليها عمر. (إعادة إنتاج أعمق بتصوّر أكثر تفصيلا لفكرة هيراكتيليس (Heractulis) اللي ذكرناها) اللي ترجمه أفلاطون بمقولته الشهيرة.

Nothing is, everything is becoming

كل حاجة في الحياة في حالة «حدوث» مستمر، كل حاجة في حالة تغيّر دائم، مافيش أي حاجة مخلوقة ثابتة ثبات أبدي، كل حاجة بتعجّز أو بتتحلل أو بتفنى أو بتموت. وده العالم اللي بيقدر البني آدم يُدركه، ويشوفه ويسمعه ويشمه ويحس بيه؛ وعالم تاني بقه، ثابت مابيتغيّرش أبدا. العالم اللي ورا العالم اللي عايشين فيه إحنا، ومابنقدرش بحواسّنا الأرضية نُدركه. بس أهم حاجة برضه إن بالرغم من إننا مانقدرش ندرك ذلك العالم المثالي الكامل المطلق بالحواس، إلّا إننا بدراسة العالم المادي نقدر نوصل لإدراك العالم التاني ده؛ وهو العالم الحقيقي فعلًا لإنه هو العالم الغير متغيّر أبدا، الأبدي، اللي مش محكوم بزمن، ولا يفنى ولا حتى يتغيّر.

تطبيق ما سبق على الإنسان نفسه في تصوّر أفلاطون، بيخلّي البني آدم عنده وجودين برضه؛ وجود مادي حسّي؛ جسمه، اللي بيخضع لقواعد الطبيعة، لقواعد العالم المادي، فبيصيبه دايما مشاكل وبتطرأ عليه عيوب، ودائم التغيّر في كل ثانية لحد ما يعجّز

ويموت، وروحه من ناحية تانية بقه اللي ولا بتعجّز ولا بتموت ولا بتتغيّر. وبالتالي تبقى هي دي حقيقة البني آدم فعلًا. البني آدم هو روحه مش جسده.

الأفكار دي بالذات عن العالمين اللي واحد منهم حقيقي والتاني ترجمة ليه بس، بتاعة سقراط ومن بعده أفلاطون خلّت كثيرين يسمّوهم، مسيحيين قبل المسيحية[1].

دلوقتي دي كلها بالنسبالكو أفكار بديهية بس ده بسبب معتقدكو الديني، لكن في الحقبة دي من تاريخ الأرض وفي المكان ده من العالم حيث كان المعتقد الديني مختلف تمامًا، والعالم مش مخلوق أصلا، كانت دي أفكار ثورية ومستنيرة جدا، مُلهَمَة ومُلهِمة جدا، لإنّهم وصلوا للأفكار دي بالجدل العقلي الفلسفي مش بالإيمان بمُعتقد ديني، وماكانوش بيستعملوها عشان يروّجوا الفكرة الإيمان أو الاعتناق الديني، بل كانت أفكار فلسفية بحتة. لكن من كتر اقتراب الأفكار دي من الأفكار الدينية المسيحية اللي جاءت فيما بعد، وحتّى الأفكار الإسلامية فيما بعد بعد، في العصور الوسطى كتير من طلبة العلم ذاكروا أفكار سقراط وأفلاطون على إنّها كانت التمهيد للفكرة المسيحية عند الغرب.

أفلاطون نفسه كانت الأفكار دي بتصب عنده في فكرة الوجود الإلهي، الله الكامل كما نعرفه إحنا، وصدّق في

(١) مات أفلاطون حوالي ٣٤٨ قبل ميلاد السيد المسيح.

الـ«Reincarnation» أو تناسخ الأرواح زي فيثاغورث من قبله، الفكرة اللي بتتبنّاها ثقافات شرق آسيا بتاعة إن الروح نفسها بتفضل ترجع تاني للدنيا في أجساد تانية، بتعيش أكتر من حياة لحد ما توصل للغرض اللي اتخلقت عشانه، أن تَخبُر، أن تَتَنوّر، أن تكتمل رحلة تعلّمها.

أفلاطون كان شايف إن المفكّر تحديدا هدفه الأسمى في الحياة هو إنه يكسر القشرة، يخترق السطح بتاع الحياة اللي هو عايشها عشان يدوّر على حقيقة الأشياء بعيدًا عن إلهاءات الواقع. هو نوع من أنواع التصوّف الفكري. الطريقة الوحيدة اللي تقدر تُمكّن البني آدم من إنه يقترب من العالم اللي بتعيش فيه روحه الأبدية بعيدا عن العالم اللي بيعيش فيه جسده الفاني. مش ممكن تلاقي الحقيقة في الحياة دي لازم تدوّر عليها في الحياة الأصلية اللي دي ما هي إلا انعكاس ليها. (لو خدت الكلام ده على فكرة وقارنته بأفكار إسلامية صوفية مثلا حتلاقي تقارب أكتر بكتير من الطبيعي ☺).

في واحدة من حوارات أفلاطون اسمها «Phaedo» (فايدو)، كتب أفلاطون على لسان سقراط البطل إن اللي بيعمله الفيلسوف في الحياة هو زي ما يكون بروفة للموت؛ بيتخلّص من العالم ده ويروح للعالم الآخر بس باختياره طبعا. وعشان يقدر البني آدم المفكّر الفيلسوف يحقق ده لازم يحرّر نفسه من كل إغراءات وإلهاءات الواقع اللي هو عايشه، بإنّه يشوف كل حاجة في الدنيا على حقيقتها الدنيوية الفانية. وده خلّى أفلاطون يبقى عنده موقف

غريب شوية تجاه الفنون، موقف عدائي في الحقيقة؛ شاف إن الفن بيجذب الحواس الدنيوية، لحاجات دنيوية برضه، وكل ما كان الفن أجمل كل ما بيعمل إغراء أكبر للناس. شاف أفلاطون الفن على إنه خداع مزدوج، هو نفسه وهم، وكمان بيستعمل حاجات أصلا وهمية (لإنها من العالم الفاني) عشان يوهم بيها زيادة من يُعجَب بالفن أيا كان نوعه. فَالفن عند أفلاطون بيضخّم وبيحلّي وبيزوّق وبيزيد ارتباطك بالدنيا «الفُنيا» الغير باقية اللي مش حقيقية (مقارنةً بالعالم الآخر الأبدي الحقيقي)، فبيزيد الفن ارتباطك بالدنيا اللي أصلًا عشان تبقى فيلسوف لازم تزهد وتتصوّف فيها. فَشاف أفلاطون الفن على إنه خطر على روح البني آدم المفكّر وبيعطّله عن الوصول إلى هدفه الأسمى!

كان متزمّت دينيًّا أفلاطون! من قبل الأديان ما توصلّه، مفارقة غريبة! نفهم منها إن التزمّت الديني مش سببه الدين أيا كان بل دايمًا سببه طبيعة البني آدم اللي بيمارسه مش طبيعة الدين؛ عشان كده فيه متزمّتين متشدّدين من أصحاب كل ديانات الأرض، وأهه كمان شايفين تزمّت ديني عند أفلاطون من قبل الديانات!

أفلاطون شاف إن البني آدم مكوّن من تلات عناصر متضادّة مع بعض، عقل وعاطفة وإرادة. وشاف إن البني آدم الحكيم هو اللي بيخلّي إرادته تسيطر على عواطفه، إرادته تتحكم في اللي بيعوزه واللي بيحبّه.

في تصوّره للمجتمع المثالي، شاف إن الدولة لازم تساعد الناس في الوصول للغاية دي؛ بإن الملك الفيلسوف الزاهد في الدنيا والحكم اللي بيدوّر على حقيقة العالم -نفس فكرة سقراط عن الملك الفيلسوف اللي تبنّاها أفلاطون في «الجمهورية»- لازم يبقى عنده ما أطلق عليه «The Auxiliaries» (المساعدين)، اللي هم مثلًا ممكن يبقوا حاجة زي أجهزة الدولة كده، شغلتهم يوجّهوا عامة الناس في اتّجاه معيّن بيحدده «الملك الفيلسوف»؛ يعني الحاكم يبقى فيلسوف، يرسم توجّه للمجتمع كلّه، ويدّي سلطة لمساعديه عشان يقدروا يوجّهوا المجتمع كلّه في الاتجاهات اللي هو شايفها أصح. (وتأمّل الفروق وأوجه التشابه بين التصوّر المبني على فكرة الملك الفيلسوف ده، والأنظمة الشمولية الدكتاتورية اللي اتّبعت نفس فكرة تحديد الحاكم لاتجاهات المجتمع الفكرية في الأنظمة الشمولية الدكتاتورية بأنواعها اللي ظهرت لاحقا في التاريخ، تأمل الفرق بين الملك الفيلسوف اللي بيوجّه المجتمع ناحية الحق والخير والجمال، والدكتاتور اللي بيوجّه المجتمع مكان ما يحب!).

أفلاطون اكتسب مكانته في التاريخ عشان أفكاره دي في السياسة والحياة فضلت هي الأكثر تأثيرًا على كل أفكار الفلاسفة لمدة حوالي ٦٠٠، ٧٠٠ سنة بعد ما مات ولحد ما المسيحية انتشرت وبدأت الأفكار المسيحية تبقى صاحبة التأثير الأكبر على الفلسفة الغربية.

الكهف

حنخلّص كلام على أفلاطون دلوقتي بواحدة من أشهر تصوّراته اللي كتبها في حواره السقراطي «الجمهورية». أسطورة الكهف؛ حاول أفلاطون في تلك الأسطورة إنه يقدّم تصوّر عن الحالة الإنسانية أو حالة المعرفة الإنسانية تحديدًا وعلاقتها بالواقع.

تعالوا نتخيّل كما طلب أفلاطون منّا في أسطورة الكهف؛ إن فيه كهف في جبل ما، والكهف ده عميق جوّة الجبل فَالطريق ليه طويل كفاية إنّه مايدخّلش أي نور من برة، فمبدئيا الكهف مُظلم تمامًا بس في نفس الوقت متّصل بالعالم عن طريق الممر المؤدّي إليه. وبعدين حنتخيّل إن فيه ناس محبوسين في الكهف ده، مساجين، ومش بس محبوسين همّ مربوطين كمان، ومش بس مربوطين، بل كلّهم مربوطين ضهرهم للممر اللي هو صلتهم الوحيدة بالعالم، وكمان ومتثبّتة رقابهم بحيث إن كلّهم يبقوا باصّين في نفس الاتّجاه ومايقدروش يحرّكوا راسهم، فمش شايفين بعض أوّلًا، وكمان

ماحدّش منهم يقدر يشوف أي حتة في جسمه هو نفسه؛ كل اللي يقدروا يشوفوه هو جدار الكهف اللي هم مربوطين في مواجهته.

والتصوّر ده طبعًا بيفترض إن الحيطة اللي همّ باصّينلها دي هي كل اللي شافوه طول حياتهم، مايعرفوش أي شكل تاني للحياة، مايعرفوش حتّى البني آدم نفسه بيبقى شكله عامل ازّاي، كل واحد مش عارف حتّى هو نفسه شكله عامل ازاي.

في ضهرهم بقه حنولّع نار كبيرة متوهّجة، وبينهم وبين النار حنبني حيطة بطول البني آدم، هم طبعًا مايعرفوش عنها حاجة، هم باصّين قدّامهم بس؛ وحنخلّي ناس يفضلوا رايحين جايين بين النار وبين الحيطة شايلين حاجات على راسهم، فَالضل بتاعهم هم نفسهم مش حيبقى باين للمساجين المربوطين وشّهم في حيطة الكهف (عشان بتمنعه الحيطة) وكل اللي حيبقوا شايفينه، هو ظل الحاجات اللي شايلينها الناس اللي بيتحرّكوا فوق راسهم، وحيسمعوا الأصوات اللي طالعة منهم (وكمان بصدى للصوت ده، بسبب الحيطة والكهف). كويّس كده؟ قولوا كويّس.

بيقول هنا بقه أفلاطون، إن المساجين المربوطين في الكهف دول، «الحقيقة» اللي يعرفوها حتبقى عبارة فقط عن الأصوات اللي بتوصلّهم، والخيالات اللي شايفينها بتاعة الأشياء المختلفة اللي شايلينها الناس اللي بيتحرّكوا قدّام النار على راسهم. الحقيقة الوحيدة بالنسبالهم حتبقى صدى صوت وخيالات؛ وبالتالي كل

أفكارهم وكل حواراتهم مع بعض حتبقى عن الخيالات اللي شايفينها وصدى الصوت اللي سامعينه، لإن ده هو «كل» اللي يعرفوه، كل ما عندهم من تجربة، ومن «حقيقة».

لو حد من المساجين بعد حياة كاملة من السَّلسَلة دي، فك قيوده واتدوّر فشاف الحيطة والناس والنار، حيترعب ويتلخبط وحيبقى عايز يرجع تاني لوضعه «الطبيعي» اللي هو متعوّد عليه طول عمره، إنّه يكون مربوط ومش شايف حاجة غير خيالات لحاجات مايقدرش يميّزها، وأصوات مايعرفش مصدرها ومش فاهمها ومع ذلك بتمثّل المجهولات دي بالنسباله الحقيقة الوحيدة اللي يعرفها! حيبقى عايز الحقيقة اللي يعرفها.

ولو الشخص ده طلّعناه برّه الكهف، وشاف نور الشمس والجبال والشجر وكده، حياخد وقت طويل جدا عشان يستوعب دول إيه ويتعوّد عليهم، ولو بعد الوقت الطويل رجّعناه تاني الكهف، وحكى لزمايله القدامى عن اللي شافه برّه، مش حيفهموا أصلًا هو بيتكلّم عن إيه لإنّهم مايعرفوش غير الخيالات اللي طول عمرهم شايفينها.

أنا بالنسبالي اللي ممكن نتعلّمه عن أنفسنا وعن بعض وعن العالم من التصوّر الأفلاطوني ده مش محتاج شرح منّي بس محتاج تأمّل منكو انتو.

اقفوا بقه شـوية تأمّلوا وبعدين ابقوا كمّلوا. تأمل الكهف بتاعك وبتاع كل بني آدم، تأمّل خيالاتك، تأمل الحقيقة اللي تعرفها.

«We don't see things as they are, we see them as we are». Anaïs Nin (1903 – 1977).

«إحنا مابنشوفش الأشياء كما هي، بل كما نحنُ».

أنايس نين (١٩٠٣ – ١٩٧٧).

(ومن قبلها بكتير أفلاطون).

أرسطو

تالت الكبار التلاتة، أرسطو، سمّاه العرب «المعلّم الأول»، «Dante» (دانتيه)[1] الشاعر الإيطالي الشهير سمّاه «مُعلّم من يعرفون». أرسطو كان الرجل اللي رسم خريطة العلوم كلها. هو واضع علم المنطق ومعلّم الإسكندر الأكبر شخصيًّا. هو اللي عرّفه عالفلسفة ويُقال إن تأثيره كان عظيم على شخصية الإسكندر، ده غير يعني إنجازات كتير حنتكلّم عنها وإنجازات أكتر مش حنذكرها. زَي بالظبط ما كان أفلاطون تلميذ نجيب ومُخلص لسقراط، كانَ أرسطو تلميذ نجيب ومُخلص لأفلاطون.

إتولد أرسطو حوالي ٣٨٤ قبل الميلاد. وهو عنده ١٧ سنة راح أكاديمية أفلاطون عشان يتعلّم فيها. قعد أرسطو في أكاديمية

---

(١) Dante Alighieri (1265-1321)

أهم شعراء إيطاليا في العصور الوسطى وبيعتبره الكثيرون أعظم مَن كتب بالإيطالية في كل التاريخ.

أفلاطون لمدة حوالي ٢٠ سنة كاملة؛ وبعدين حوالي ٣٥٥ قبل الميلاد، عمل مدرسته الخاصة في أتينا وسمّاها «Lyceum».. اللي اكتشف موقعها اليونانيين بالمناسبة سنة ١٩٩٦، واحتفوا بيها أيّما احتفاء.

بالرغم من تقدير أرسطو الكامل لأستاذه أفلاطون، إلّا إنه رفض تماما نظريّته اللي كانت أساس لكتير من شغله، بتاعة إن العالم المادّي اللي احنا عايشين فيه ده، مانقدرش نعتقد إن عندنا علم تام حقيقي بيه، لإنّه أصلًا دائم التغيّر ومابيثبتش على حال أبدًا؛ وكان بالنسبة لأفلاطون الأستاذ، المعرفة الحقيقية لازم تبقى مرتبطة بالعالم الآخر، لإنّه ثابت وغير متغيّر وبالتالي اللي فعلًا ممكن نعرفه عنّه يبقى هو فقط الحقيقي؛ مع ملاحظة طبعًا إن المعرفة دي مش للعامة، بل فقط للحكماء والمفكّرين عشان هم اللي يقدروا يوصلوا لحقيقة العالم الآخر المجرّد الكامل والمتحرّر من قيود الزمان والمكان.

أرسطو كان أكثر إعجابًا بكتير بالعالم، وشاف إن العالم المادّي اللي احنا عايشين فيه ده هو محرّك التفكير أصلًا عند البشرية، هو اللي دفع البني آدم للتفلسف. أرسطو رفض نظرية أستاذه بنفس المنطق اللي رفض بيه سقراط زمان شغل من سبقوه؛ لاحظوا حكاية خطوتين لقدّام وخطوة لورا! رفض أرسطو نظرية أفلاطون لإنّ التفلسف والتفكير في محاولة لفهم العالم الآخر، مش ممكن حد يثبت أي حاجة متعلّقة بيها. لكن العالم ده، اللي احنا عارفينه

كويّس وعايشين فيه ونقدر نجرّب فيه، هو كل ما نملك. وكل اللي برّاه مش مفروض يبقالنا دعوة بيه أصلًا، لإنّه مش حيفيدنا بحاجة. لو فضلنا نحلّق في سماء الفلسفة الأفلاطونية مش حنوصل لأي حتّة، حياتنا هنا عالأرض (في العالم المادي الناقص الفاني) حتبقى دايما ناقصة. في تصوّري إن تأمل ما وراء الدنيا ممكن يخلّينا نزهد في الدنيا، وممكن يساعدنا نقترب من الإله، وممكن حتى يقربنا من الحقيقة، ولّا احتمال أصلا يوصّلنا للحقيقة. لكن ده في كل الأحوال مش حيغيّر الواقع، مش كفاية إنه يغيّر الواقع، عشان تغيّر الواقع لازم تذاكره هو نفسه.

أرسطو كان عنده شغف عظيم بالعالم، فضل طول عمره منكب على دراسة الدنيا بكل طريقة يقدر عليها، الوجود المادي اللي كان بيشوفه أستاذه على إنّه مُلهي وغير حقيقي، وقع هو في غرامه أيّما وقوع. فرسم أرسطو لعلوم كتير مساراتها الأولى بل وكان أوّل من يستعمل أسماء لعلوم مهمة جدا: المنطق، الفيزيا، العلوم السياسية، الاقتصاد، علم النفس، الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة)، علم ظواهر المناخ، البلاغة، وأخيرا وليس آخرًا علم الأخلاق. أرسطو حط منهج لعلم المنطق، كان أول واحد يحط قواعد علمية للاستدلال المنطقي السليم. حط القواعد وقسّمها ومنهجها، ولمدّة ألفين سنة بعد أرسطو، كان لو أي حد بيدرس منطق يبقى بيدرس منطق أرسطو.

كان مصيبة سودة أرسطو، واحد من أهم البني آدمين اللي وُجدوا على كوكب الأرض، وعمود يمكن هو الأهم، من الأعمدة اللي اتبنت عليها الحضارة الحديثة.

في عصور الظلام ماتت علوم أرسطو كلّها مع كل ما مات في أوروبا، لكن فضلت عايشة عند العرب بفضل ابن سينا (اللي كانوا بيسمّوه بقه المعلّم التاني) والفارابي، ومن بعدهم ابن رشد وغيرهم من علماء العرب المسلمين اللي عملوا شغل كتير في ترجمة ونقل أرسطو وتحليله والزيادة عليه؛ ورجعت تاني المعارف دي لأوروبا عشان تبقى حجر أساسي مما بنيت عليه نهضتها لاحقا، وفي الطريق طبعا استفادت منّه بشكل كبير جدا الحضارة العربية الإسلامية.

السؤال الأهم اللي انطلق منّه كل شغل أرسطو كان:

What is being?

إيه هو الوجود؟

إزاي نقدر نوصف حاجة إنّها موجودة؟ (لاحظوا ازاي هو كان مشغول بـ«الوجود» بسبب رفضه لنظرية أستاذه بتاعة العالمين المختلفين، اللي فيه الوجود المادي ده مش مهم خالص). أول استنتاجاته المهمّة كانت إن أي حاجة في الدنيا مش معمولة من الحاجات اللي بتكوّنها، وضرب مثال ببيت مثلًا، البيت مش الحجر والخشب والحديد اللي بيبنوه، لإن لو عندك كل مكوّنات أي بيت، حاططها قدّامك كده، مش حيبقى عندك بيت ولا حاجة، حيبقى عندك حجر وخشب وحديد وغيره، لكن البيت بيتعمل ازاي؟ البيت بيتعمل بإنّك تركّب كل الحاجات دي على بعض بتصميم معيّن، بترتيب معيّن، فيطلع البيت؛ البيت ماينفعش يتعمل من غير

مكوّناتـه أهـه، لكن المكوّنـات لا تسـاوي البيـت، لإن البيت مش معمول من مكوّناته بس. وكذا طبعًا كل حاجة في الدنيا.

ضرب مثال كمان بأستاذ أستاذه سقراط، قال: سقراط بني آدم، جسـمه مكوّن من خلايا وأنسجة وأعضاء... إلخ، وجسمه ده بيتغيّر كل يـوم وبيبان عليه التغيّر كل شـوية وبيعجّز، لكن بيفضل سـقراط هو سـقراط بالرغم من إن جسـمه عمّال يتغيّر، فسقراط مش جسمه ولا مكوّنات جسمه، وإنّما سقراط هو سقراط.

إحنـا مابنسـمّيش كل الـكلاب كلاب لإنّهـم معمولين من نفس مكوّنات الكلب، بل بنسـمّي الكلب كلب لمّا يكون عنده «تصميم» الكلـب، الـ«design» بتـاع الكلـب، مواصفاتـه. مـع إن مكّونات الكلـب هي مكّونات كل حيوان، وكـذا طبعا كل فصيل مخلوق في الدنيا. وطبعًا كلام أرسطو ده كان مُذهل في مواجهة الماديّة المفرطة اللي كانت بتؤمن إن المادة فقط هي اللي حقيقية لإننا نقدر نمسكها ونفحصها وندرسها. كان تأمُّل أرسطو للوجود والكينونة من وجهة نظـر مبنية عالمادية، على الموجود، بس مش الموجود من برة كده، انشغل أرسطو بالنزول إلى أعماق الوجود ده يدوّر على أسبابه (من تصميم وغرض وهكذا).

طيّب، انطلاقًا بقه من قناعته إن كل حاجة لا تسـاوي المادة اللي معمولة منهـا، رفضه للماديّة وكمان رفضه لنظرية أسـتاذه أفلاطون إن كل حاجة فـي الدنيا هي ترجمة أو انعكاس لحقيقة العالم الآخر

الغير دنيوي وهو ده اللي المفروض ننشغل بيه واحنا بندوّر على حقيقة الأشياء؛ كان لازم أرسطو يحدّد بقه إجابته هو عن: ممّ تتكوّن الأشياء؟ شاف أرسطو إن كل حاجة معمولة من الـ «form»، اللي هو الهيئة، الشكل، أو التصميم مثلًا، اللي هي معمولة بيه. وهنا وصل لإنّه يفكّر في مفهوم «السبب»، وشاف إن كل حاجة بتتكوّن حقيقتها من أربع أسباب بيكمّلوا بعض، أول ما تدركهم، تفهم علطول حقيقة اللي انت بتحاول تفهمه.

وهنا استعمل مثال يشرح بيه موضوع الأربع أسباب أو أغراض اللي بفَهمهم ممكن توصل لحقيقة أي حاجة؛ تمثال رخام مثلًا، عشان التمثال يبقى تمثال لازم أوّلًا يبقى فيه رخام، وده سمّاه أرسطو «السبب المادّي»، هو اللي بيجاوب على سؤال: معمول من أنهي مادة؟ وافتكروا إننا اتّفقنا خلاص إن ده سبب أساسي لأي حاجة عشان توجَد، لكن هو مش سبب كافي، لسه لازم ٣ أسباب تانيين يتحقّقوا عشان يتحوّل الرخام إلى تمثال.

تاني حاجة محتاجها التمثال عشان يتعمل هي مطرقة وإزميل اللي هو السبب اللي سمّاه أرسطو «The efficient cause»، «السبب الفعّال»، الأدوات اللي حنستعملها عشان نحوّل قطعة الرخام إلى تمثال. بس لو أنا مثلًا قعدت أخبّط بشاكوش وإزميل في حتّة رخام مش حيطلع تمثال، هنا نحتاج السبب التالت: الـ «form»، التصميم، الـ «design»، حيبقى تمثال راجل ولّا ست ولّا حصان ولّا غيره، «The Formal Cause» ده، السبب بتاع

الهيئة والشكل والتصميم هو سبب عميق الأهمية لأي حاجة في الدنيا لإن هو اللي بيحدد شخصيتها، «إيه هيّ؟»؛ وأخيرًا وليس آخرا النحّات بقه اللي حيستعمل الرخام والأدوات والتصميم دول عشان يعمل التمثال. وهو السبب الأخير والأهم والأعلى، لإن هو اللي عنده الغرض اللي بيتخلق عشانه التمثال أصلًا، إن يبقى فيه حد عايز يعمله -ويقدر يعمله-. فيدوّر بقه عالأسباب السابق ذكرها، لكن أهم ما في التمثال هو السبب الرابع ده، «صاحب الغرض».

يبقى عند أرسطو ٤ أسباب لأي حاجة عشان تتخلق:

الأول المادة اللي بتتعمل منها؛ السبب المادّي.

التاني الأدوات اللي حتعملها؛ السبب الفعّال بتاع الـ«Efficency».

التالت الصيغة أو التصميم؛ اللي هو الـ«Form».

وأخيرًا الرابع، الهدف النهائي، الصانع اللي بيملك الغرض شخصيا؛ أهم الأسباب على الإطلاق، لإنّه المُتسبّب في الخلق.

فيه حتة صعبة كده جايّة أهه؛ دلوقتي بقه في حالات كتير ممكن الأسباب التاني والتالت والرابع دول يبقى أي اتنين أو أكتر منهم حاجة واحدة؛ لما نكون بنتكلّم عن كرسي مثلا الموضوع سهل، الغرض من الكرسي واضح، والفروق بين أسباب حصول الكرسي واضحة، زي مثال التمثال بالظبط ؛ لكن لو بنتكلّم عن شجرة مثلا (مش شجرة فاكهة، عشان ماتفتكرش إن الغرض من شجرة الفاكهة

هي الفاكهة مش الشجرة نفسها)؛ في الشجرة، السبب المادي اللي اتعملت منه هو الشجرة نفسها، تاخد شتلة من شجرة تزرعها في الأرض تطلّع شجرة جديدة، الشجرة اتعملت من الشجرة. الشكل أو التصميم اللي هو السبب التالت، بيبقى هو نفسه السبب النهائي (إنت ممكن تقرّر تعمل منها كرسي برضه، وتحوّل الشجرة لسبب مادي للكرسي، ده موضوع تاني، بس هي نفسها غرض في حد ذات نفسها كده). (السبب التاني بتاع الـ«Efficiency» اللي هي الأدوات في حالة عمل التمثال، بتبقى هنا المية والغذا اللي بتاخدهم الشجرة من الأرض والهوا، والضوء اللي بتاخده من نور الشمس وهكذا).

الشجرة دي بقه الـ«Form» بتاعها بيكتمل بإنها تكتمل، وهي جاية من نفسها، وتصميمها موجود في سببها المادي، ماحدش اضطر يعملّها تصميم جديد، وكمان الغرض النهائي منها بيتحقق أول ما تصميمها يكتمل. فبقت الأسباب بتاعة الشجرة دي مش بس متّصلين ببعض بل أصلا همّ واحد، كلّه «منّه فيه» ☺ (زي ما بيحصل في حالات كتير، كلهم بيتطلّبوا المجهود ده في تحليل أسبابهم).

الخلاصة يعني بتاعة نظرية الأسباب لأرسطو؛ هو إن الإيمان فقط بما هو مادي بيخليك قصير النظر ماتقدرش تدرك حقيقة الأشياء، وفي نفس الوقت البعد عن العالم المادي لحساب العالم الآخر زي ما عمل أستاذه برضه حيبعدك عن إدراك حقيقة الأشياء.

الـ«Form»، الشكل بتاع أي حاجة بيبقى مُتأصّل في وجودها الدنيوي مش منفصل عنه، مش برّاها؛ صيغة التمثال بيحملها التمثال

جنبا إلى جنب مع التمثال معمول من إيه ومعمول ازاي ومين عمله وعمله ليه. وكذا كل حاجة في الدنيا، كل حاجة بتتكوّن من كل الأسباب دي مع بعض. وأهم ما في الموضوع هو إن فهم أي حاجة في الدنيا فهم حقيقي بيتطلّب الفهم العميق ده لكل «أسبابها».

شاف أرسطو إن الجوهر الحقيقي لأي حاجة، روح أي حاجة، مش في مكوّناتها، بل في الوظيفة اللي بتأدّيها. قال مرّة في شرح الحكاية دي إن لو العين عندها روح يبقى روح العين هي الرؤية، ألا وهي وظيفتها. وشاف الأشياء بنفس الطريقة؛ فلو الشاكوش له روح، حتبقى روح الشاكوش هي عملية الدق نفسها، عملية استعماله. الفكرة الحقيقية من أي حاجة في الدنيا هي اللي الحاجة دي بتعمله، الغرض من وراها، وفهمنا للفكرة دي هو طريقنا لفهم أي حاجة، بفهم نظرية أرسطو بتاعة روح الشيء صيغته وشكله تصميمه وأخيرا غرضه النهائي.

النظرية دي مش بس ادّت أرسطو الإجابة عن سؤاله الأهم، بتاع ما هو الوجود المادّي؟ بل كمان حلّتله مشكلة التغيّر، التغيّر بتاع كل حاجة في العالم المادّي اللي خلّت أفلاطون يفقد إيمانه بيه؛ قال فيها أرسطو إن التغيير بيحصل لمّا المادة اللي بتدخل في تكوين شيء ما، تاخد شكل ماخدتوش قبل كده. اللي هي العملية اللي بتحصل طول الوقت في كل ثانية لكل حاجة في الدنيا بتتغير بإنها هي نفسها أو جزء منها يتحوّل إلى مكوّن لحاجة مختلفة، بمعنى بسيط إن التغيير ده هو حقيقة العالم ده، وبالتالي لا يمكن فهم العالم من غير فهم متغيّراته.

يقول أرسطو إن في كل محاولاتنا لفهم العالم لازم مانناساش أبدا إن اللي احنا عايشين فيه ده هو العالم اللي احنا عايزين نفهمه، فلازم مانقبلش أبدًا تفسيرات بتناقض نفس التجارب اللي احنا أصلا بنحاول نفسّرها. المقصود هو إننا نثق في تجاربنا، ومانقبلش أي تفسير بيلغي التجارب السابقة أو بيعتبرها ماحصلتش. بل لازم نفضل قابضين إيدينا على تجاربنا السابقة طول الوقت عشان كل التجارب دي بتصب في الغرض النهائي بتاعنا احنا نفسنا كإنسان، وهو أننا نفهم الحقيقة، ولو تخلّينا عن تجاربنا مش حنقدر نوصل تاني (لإن الحقيقة شيء متغيّر دايما وإدراكها مش منفصل عن إدراك أسبابها).

يلاحظ عبر تاريخ البشرية أن الأمم المختلفة بتمشي في واحد من الطريقين دول، التفكير المادي أو التفكير العقلاني اللي ظهر لاحقا في القرن الـ١٧ والـ١٨، حسب طبيعة مجتمعاتهم؛ الشعوب المتديّنة بتؤمن بيما آمن بيه أفلاطون، الدنيا فانية، مش حقيقية وهكذا؛ والشعوب اللي بتميل للعقلانية أكتر من الإيمانية بتمشي في طريق أفكار أرسطو. (لاحظ ازاي ابن رشد بذل مجهود رهيب في تقريب أفكار أرسطو دي من أفكاره «الإسلامية»). وكما هو الحال دائما الحلول الوسطى بين اليمين والشمال بتبقى دايما الحلول الأسلم، (الفيلسوف الألماني الشهير كانط في القرن الـ١٨ هو اللي خلق نظرية جديدة عن المعرفة بتجمع بين الاتجاهين المختلفين جدا عن بعض دول).

تأمل بقه ازاي أرسطو فكر في كل حاجة بطريقة مختلفة عمّن سبقوه لإن فلسفته كانت مختلفة عمّن سبقوه، انطلق من نقطة انطلاق مختلفة، لبس نضارة مختلفة وبص بيها عالعالم فشاف كل اللي شافه ده. تأمّل ازاي وهو بيفكّر في مسألة الوجود الصعبة دي وبيبعد فراسخ وأميال عن نظرية أستاذه اللي مش مهتمة بالعالم المادي، بدأ يشوف إيه.

فلسفة الأخلاق تطوّرت جدا على إيد أرسطو بالرغم من إن لاحقا حتى لحد القرن العشرين فضلوا فلاسفة الأخلاق منهمكين جدا في الإجابة عن أسئلة فردانية كده، إيه هو الحق؟ إيه هو المفروض؟ إيه هو الصح؟ (نفس الأسئلة اللي بدأت بيها رحلة سقراط من ٢٥٠٠ سنة!) لكن أرسطو كان عنده اقتراب عبقري أوسع وأعمق لموضوع الأخلاق ده.

شاف أرسطو إن الغرض بتاع البني آدم إنه يعيش في سعادة مش ممكن يتحقق لو اتحبس البني آدم ده في نفسه ودوّر على سعادته هو لوحده؛ السعادة عند أي حد هي السعادة اللي يقدر يحصل عليها سواسيةً مع الناس اللي هو عايش معاهم في مجتمع واحد. لما يتحقق المجتمع بيسعد الناس اللي عايشين فيه ومش ممكن ده يحصل لأي واحد منهم على حدة. مهما تحقّقت انت لوحدك مش ممكن توصل للسعادة، مش ممكن تعيش بالطريقة اللي انت عايزها في مجتمع بيرفض الطريقة دي وتعيش في سعادة. اهتمامك بنفسك بس، محاولتك لإرضاء نفسك بس، لازم حيخلق صراع مع

الناس اللي انت عايش معاهم، والصراع تأثيره سيئ على الشخصية أولا، وثانيا الطريقة الوحيدة لتجنّب الصراع ده هو إن البحث عن السعادة يبقى موضوع كلّي يخص المجتمع بحاله.

صحيح الصراع مضرّ بالبني آدم لكن كمان البلادة وعدم الاهتمام مضرّين بالبني آدم، ده اللي وصّل أرسطو للـ «doctrine» أو العقيدة الشهيرة.

«The Golden Mean» المتوسط الذهبي؛ اللي ببساطة بيقول إن الفضيلة دايما في نقطة في النص بالظبط بين نقيضين عكس بعض؛ فالشجاعة هي اللي في النص بالظبط بين الجبن والرعونة، الكرم هو اللي في النص بالظبط بين البخل والإسراف، التواضع هو ما بين الوقاحة والخجل وهكذا. لو الإنسان غرضه «التوازن» حيعرف يبقى سعيد، ولو المجتمع كلّه متوازن حيَسعد كل من فيه. راقب شعوب الأرض المختلفة وتأمل ازاي يستحيل السعادة تتحقق في وجود تطرّف في أي اتّجاه.

امتد تأثير تصوّر أرسطو عن الأخلاق لنظرته للسياسة، فشاف إن الدولة شغلتها إنها تحقق التوازن ده للمجتمع (عشان يوصل المجتمع للسعادة، كجماعة مش كأفراد) ومن هنا جت مقولته الشهيرة: «الإنسان حيوان سياسي».

«Man is by nature a political animal».

والمقصود هو أن السياسة مش منفصلة عن سعادة الناس الشخصية لإن السياسة شغلتها تخلق دولة تحقّق سعادة الناس كلّهم كجماعة.

أرسطو على فكرة كان راجل غني وقوي، كسب في زمانه جايزتين في بطولات مصارعة، وبرضه تأمّل تأثير القوة الجسدية والغنى المادي على ثورة أفكاره وشجاعتها. مات أرسطو سنة ٣٢٢ قبل الميلاد عن عمر يناهز الـ ٦٢ سنة، بس عاشت فلسفاته ومساهمته في صناعة حضارة البشرية للنهارده ولنهاية حضارة البشر.

أرسطو في أول حياته كتب مجموعة من الـ «dialogues» أو الحوارات زي اللي كتبهم أستاذه أفلاطون، لكن أغلبهم ضاع وماوصلّناش زي أغلب كتاباته، ومع ذلك ساب أرسطو كتب كتير بعد ما مات، لكن للأسف بعد اللي ضاع أغلب اللي وصلنا منه ماكتبوش أرسطو بنفسه، فَالكتب اللي عندنا دي عبارة عن تجميعات لأفكاره عملها تلامذته، وفضلت تنقّح عبر السنين ويحصل عليها تغييرات بدرجات متفاوتة طبعا عشان دي فلسفة، وهي الفلسفة بتتنقل روح اللي بينقلها بتتزوّد عليها. وده اللي بيخلّي قراية أرسطو مسألة صعبة ومعقدة ومتعبة جدا؛ أرسطو كان واحد من علامات التاريخ البارزة القليلين جدا اللي ذاكر كل علم كان ممكن يوصلّه؛ درس فيزيا وتشريح وفلك وعلم الأجنة وعلم الحيوان وجغرافيا وجيولوجيا وعلم ظواهر المناخ وغيره، كان موسوعة أرسطو. وكان مهم جدا عشان يلعب الدور اللي لعبه في تاريخ حضارة الأرض ده

إنه كان يبقى موسوعي كده، لإن موسوعيته دي وتخصصه في علوم كتير هو اللي خلّى شغله يغيّر نظريات المعرفة والعلوم بعده.

الكتب اللي سابها وراه بغض النظر عن إن أغلبها كان نقلا عنه، كانت في مجالات كتير جدا أهمهم في نظر الكثيرين كان «كتاب السياسة»؛ كتب فيه عن أنظمة الحكم المختلفة اللي كانت بتُحكم بيها إمبراطورية الإغريق، نقد الديمقراطية (حكم العامة)، ونقد الأوليجاركية (حكم النخبة)، وقال إن الطريقة الوحيدة لممارسة الديمقراطية بشكل سليم هي إن الطبقة المتوسطة هي اللي تمسك زمام أمورها؛ لا تستقيم الديمقراطية من وجهة نظر أرسطو إلا في مجتمع الطبقة المتوسطة فيه أكبر من طبقات الفقراء والأغنياء مجتمعين، الديمقراطية للطبقة المتوسطة، لإن ديمقراطية العامة تودّي الأمم في داهية، وديمقراطية الخاصة الأغنيا في الغالب طبعا، بتودّي الشعوب في داهية.

وهنا فيه مفارقة غريبة جدا وفي غاية الأهمية ذكرها الشيخ علي عبد الرازق[1] في كتابه القصير المهم جدا «الإسلام وأصول الحكم»؛ إن علماء العرب كانوا مبهورين بكل شغل الإغريق، ترجموا عنهم كل حاجة وقعت تحت إيديهم، وأرسطو نفسه كل

(١) اتولد الشيخ علي عبد الرازق ١٨٨٨ ومات ١٩٦٦؛ وفي سنة ١٩٢٥ كتب «الإسلام وأصول الحكم»؛ كتاب صغير مهم جدا في نقد الحكم المسمى بالخلافة الإسلامية؛ واترفد بسببه من الأزهر واتنفى بسبب حساسية الموضوع في وقت كمان الملك فؤاد الأول كان عايز يُسمّى خليفة واضطر يكتفي بلقب ملك.

شغله اتنقل للغة العربية، كل شغله ما عدا كتاب واحد، كتاب السياسة! حيث جرت العادة أن علماء «الدولة الإسلامية» كانوا عارفين كويس إن مافيش سياسة تحت أنف صاحب لقب خليفة للمسلمين، طول ما فيه «خليفة» يبقى الناس تسيب المُلك للملك!

ولما تتأمّل ازاي علماء العرب وهم بينقلوا شغل أرسطو تجاهلوا الموضوع السياسي ده كلّه على بعضه، تشوف علطول الجذور القديمة العميقة للمشكلة اللي احنا فيها دلوقتي حالا واحنا بنحاول نبني ديمقراطية على هذه الأرض. عزل الناس عن السياسة تطلّب عزلهم عن الفلسفة، وعزل الناس عن الفلسفة تسبب في إن الشعوب العربية لحد النهارده بتعاني من التبعية لحكّامها. إحنا ماعندناش سياسة مش عشان احنا خايبين لأ، الناس مش فاكرة السياسة هي كام نفر بيطلعوا بِبدل في التلفزيون عشان احنا عبط لأ؛ إحنا ماعندناش سياسة عشان مافيش حجر أساس تتبني فوقه السياسة، مافيش فلسفة، كان في تاريخنا غير مسموح بالفلسفة. ثنائي السلطة والمؤسسة الدينية من أول دولة الأمويين لحد النهارده كان أكبر إنجازاتها إن مايبقاش فيه فلسفة، ولو مافيش فلسفة ولا حيبقى فيه سياسة، فينعم الحكام بالشعوب اللي بيحكموها منفردين، ولو مافيش فلسفة حتَنعم المؤسسة الدينية بالقدسية الزائفة اللي بتحبّها جدا. ماحدش حيسألهم، ماحدش حيراجعهم ولا يردّهم، كتب التراث حتفضل تفرز ما فيها من سموم في عقول البشر، ويبقى الوضع على ما هو عليه. والتمن للأسف كان كبير

جدا، التمن كان ببساطة الفرق بين وضع العلوم والسياسة والفنون في أوروبا مثلا النهارده، ونفس وضع العلوم والسياسة والفنون في البلاد العربية النهارده. عزل الفلسفة عن الناس اللي تطلّبه الوضع السياسي مابيضرّش السياسة بس، بيضر كل حاجة!

ولما تتأمّل تاريخ المسألة دي بطوله وعرضه، تدرك ازاي التغيّر في الفكر الفلسفي بيغيّر الدنيا. ممالك المسلمين كانت عارفة الحكاية دي كويس عشان كده فضلت عبر مئات سنين تمنع حصول التغيّر في الفكر اللي حتسببه الفلسفة ده.

الفلسفة أصلها مشكلتها إن مالهاش علاقة بالأشخاص، ليها علاقة بقيم عليا منفصلة عن جميع الناس. لما تكون فيه فلسفة العدل مش حيبقى هو العدل من وجهة نظر الحاكم، ولا حتى حيبقى العدل من وجهة نظر رجال الدين، حيبقى العدل اللي هو العدل نفسه، المطلق اللي مالوش علاقة بالأشخاص، اللي الجميع بيُرغم عليه بما فيهم الحاكم ورجل الدين إن تطلّب الأمر.

بيخلص الكتاب أهه من حيث بدأ؛ بما أن الفلسفة هي المكوّن الأصلي للحضارة، مستحيل من غير فلسفة تَبقى الحضارة.

عايزين حضارة ولّا مش عايزين؟!

خاتمة

إوعـوا أبدا تنسـوا الكتـاب ده كان عن إيـه، ماكانش عـن طبيعة العالـم، ولا عن علاقة العالـم ده بالعالم التاني، ولا كان عن المادية ولا العقلانية، ولا كان عن سـقراط وأفلاطون وأرسطو، الكتاب ده كان عن الفلسفة، عن وجهة النظر، عن طريقة التفكير.

الكتـاب ده كان عـن ازاي الفلسـفة مش بـس تقدر تغيّـر الواقع والمستقبل، دي هي أصلا الأداة الوحيدة لتغيير الواقع والمستقبل.

الواقع اللي احنا عايشـينه النهارده عشان يتغير مش محتاج إدارة شـاطرة بس، ولا محتـاج فلوس بس، ولا محتاج حتـى تعليم بس، الواقـع اللي احنا عايشـينه فـي أقدم دولة في تاريـخ الأرض محتاج «حضـارة» .. إحنـا محتاجين حضارة شـخصيا، والحضارة بتتكوّن من مكوّن أصلي واحد، هو اللي بيسـببها، قبل المباني والإنجازات والمدنية، قبل النجاح والازدهار والرخاء، الحضارة العقل هو اللي بيخلقهـا. مـن غير العقـل ما يتغيّر، من غيـر ما العقليـة تتغير، الفكر

يتغير، مستحيل يحصل تغيير حقيقي عالأرض. ممكن حاجات في القشرة تتصلّح وتتعدّل ويتغير شكلها آه، لكن مجموع عقليات البشر اللي عايشين في أي وطن هو اللي بيحدد عندهم حضارة ولّا لأ، وبالتالي هو اللي بيحدد مصيرهم. وهو كمان اللي بيحدد همَّ سُعَدا ولّا لأ، خليك فاكر!

زي ما قلتلكو في أول الكتاب ده، أنا مش متأكد إزاي ده بالظبط ده ممكن يتحقق، إزاي ممكن تتخلق تاني حضارة في قوم حصلّهم كل اللي حصلّنا ده عبر عشرات السنين، إزاي يُمحى أثر الجهل والتجهيل والتجاهل والتواكل وقصر النظر والنفعية والمادية وعدم الانضباط وعدم احترام كل ما هو مهم؟ إزاي ممكن في وسط كل الأنقاض دي نقدر نبني حضارة تاني؟ فعلا مش عارف. بس اللي متأكد منه إن البداية لازم تكون بالبني آدم، بكل واحد فينا.

أنا شخصيا متأكد إن مش حيعمل حضارة أبدا ناس عايزين فلوس وبس، ولا ناس بتكره بعض، ولا ناس بتتعالى على بعض، ولا ناس بتقول يلّا نفسي. مش حيعملوا حضارة أبدا ناس بيتكلموا وبعدين يبقوا يفكروا لو حصل نصيب، ناس بتستبدل ميزان العدل بميزان المزاج، ناس بتزعّق في الوقت اللي المفروض يسمعوا فيه، ناس بتتخانق وتشتم بدل ما تتفاهم وتتفق. مش حيعملوا حضارة أبدا ناس عايزين المصلحة قبل الحق، والمصلحة قبل العدل، والمصلحة الشخصية ويولعوا بقية الناس. مش حيعملوا حضارة أبدا ناس بيتعلّموا أو في الحقيقة بيعملوا نفسهم بيتعلموا عشان

يعرفوا يتجوزوا بالشهادة، مش حيعمل حضارة أبدا اللي بيشتغل عشان الفلوس، واللي بيتكلم عشان يعجب اللي بيسمعوه، واللي بيتصرّف عشان حد يسقّفله. مش حيعمل حضارة أبدا اللي مش عايز يعرف، واللي ماتهموش الحقيقة، واللي مش شايف غير نفسه. كل دول مظاهر لغياب الإنسانية والعقل، مظاهر لانعدام الحضارة في نفس البني آدم. وولا واحدة من كل ما ذكر ده وقدّه أضعاف مضاعفة كلكو فكرتوا فيه بيتصلّح من عالقشرة، لازم يتصلّح من جوة، من جوة خالص، من عقله، عقليته، فلسفته. مش حيقدروا ناس يعملوا حضارة غير بتغيير في وجهة النظر اللي بتحدد اتجاه البوصلة، وبالتالي وبالبديهي اتّجاه المصير.

لما ناس كتير بييجوا يتكلموا عن نجاح الوطن بيقولوا: «ابدأ بنفسك» وهو شيء مفيد يعني بس مش كفاية أبدا، النجاح على مقياس كبير مسألة كلّية بيحصل لما عوامل كتير أوي تتحط في منظومة مظبوطة تسمح بالنجاح. لكن فيما يتعلّق بصنع الحضارة الموضوع تراكمي، شغلة كل بني آدم إنه يصنع حضارة في نفسه. البني آدم صحيح مابيجيش الدنيا باختياره لكن ما دام جه بقت شغلته إنه يبقى جزء من حضارة الأرض. بقى مجبر لو عايز يحقق نبوءة خلقه إنه يحدد لنفسه الهدف من وجوده كإنسان أولا، وبعدين يعمل مبادئ يؤمن بيها ويموت دفاعا عنها إذا استلزم الأمر ثانيا (مبادئ طبعا تليق على هدفه من وجوده كإنسان على هذا الكوكب في هذه الحياة)، وبعدين يعمل لنفسه منظومة قيم أخلاقية تحدد

نوعه في وسط البشر (طبعا برضه تليق عالمبادئ اللي هو عايش بيها، اللي هي لايقة على هدفه من وجوده/ ها). وبعدين لو عايز يبقى سعيد لازم يبقى متوازن، وسعادته بتفضل مشروطة بإنه يعيش في مجتمع متوازن.

بتؤمن بإيه؟ عايز عدل ولّا مش عايز؟ عايز الحق ولا مش لازم؟ عايز خير للكل ولّا خير ليك لوحدك كفاية؟ مين «ناسَك»؟ أمك وابوك وولادك ولّا معاهم أصحابك ولّا معاهم معارفك ولّا معاهم جماعتك ولّا معاهم بني وطنك ولّا معاهم كل بني آدم عايش عالأرض اللي اخترها خالقها لابن آدم يعيش عليها؟ إيه ممكن تعمله وإيه مستحيل تعمله لإنه ضد مبادءك؟ عايز الناس تقول عنك إيه بعد ما تموت؟ كل الأسئلة اللي فاتت دي وغيرها على قد ما كل واحد يقدر يسأل، أسئلة شخصية. بتاعتك وبتاعتي وبتاعة كل واحد على حدة، مش لازم خالص تبقى صاحب تأثير عشان تسألها وتجاوبها وتعيش بيها، مش لازم تبقى حاكم ولا سياسي ولا شخصية عامة ولا فيه ناس كتير بتسمعلك عشان يبقى عندك دور في صنع الحضارة. مش لازم تخترع اختراع ولا تكتشف اكتشاف ولا تطلّع نظريات تشقلب الدنيا ولا تكتب كتب عظيمة يعتبرها الناس نواميس من بعدك، كل اللي عليك إنك تعمل حضارة في نفسك، وتحاول تِعدي بيها اللي حواليك إنشالله يكون حواليك نفر واحد، وانشالله تكون العدوى دي بتحصل بإنك فقط تكون زي ما انت فعلا مؤمن إنك المفروض تكون، مش لازم تبقى خوجة

ولا مدرّس ولا مدرّب ولا مُحاضر ولا خطيب ولا أستاذ، كل اللي عليك فعلا إنك تكون. إنك انت نفسك تبقى صاحب حضارة؛ في عقلك، في ضميرك، قدام نفسك في المراية إنت بس.

تقتضي الأمانة الاعتراف إني شايف إن مش شرط خالص لو انت عملت حضارتك الشخصية وانا عملت حضارتي الشخصية وده عمل ودي عملت إننا حنبقى أمة عظيمة وأكيد أكيد حننجح لأ، وزي ما اتفقنا مش حتقدر أبدا تبقى سعيد لوحدك وانت عايش في مجتمع غير متوازن وبلا حضارة! بس يكفيك إنك انت نفسك لو كنت إنسان صاحب فلسفة ومبادئ وأخلاق «وحضارة»، تبقى نجحت خلاص، بقيت بني آدم. مش مهم بتعمل إيه في الدنيا ومش مهم مركزك الاجتماعي ومش مهم معاك فلوس قد إيه! وبرجاء ملاحظة إن الحاجات الأقل أهمية بكتير دي بقت الحاجات الأكثر أهمية عند أغلب سكان الأرض!

إنجح في تحقيق حضارة جوة نفسك من أجلِ خاطِرِكَ أنت، ولو نجحت وبقى فيه ناس كتير زيّك، احتمال تعُم الحضارة عالجميع.

وأخيرا عايز أشاور على حاجة شايفها مهمة حبتين تلاتة؛ إن من مواصفات ومتطلّبات ومستلزمات الفيلسوف الحقيقي، بما إننا اتفقنا من زمان خلاص إن الفيلسوف مابيعومش أبدا على عوم الناس، مابيقولش أبدا اللي الناس عايزين يسمعوه وخلاص؛

يبقى الدليل الأكبر على إنه فيلسوف فعلا هو إنه لازم يشتبك
مع مجتمعه، لازم يتخانق معاه، مش بالزعيق والشتيمة يعني،
ولا بالأيدي، بالعقل. زي المثقف بالظبط، المثقف اللي عايم على
هموم عامة الناس مالوش قيمة حقيقية، شغلة المثقفين إنهم يشوفوا
أبعد ما مجتمعاتهم شايفة، وشغلة الفيلسوف إنه يشوف أبعد ما كل
الناس شايفين وكمان يقف دايما حارس دَدَبان على الحق والعدل
والخير والجمال في محاولة دائمة لا تقف أبدا إنه يلاقي طرق
يحقّقهم ويحميهم.

الناس كل واحد بيبص على مصلحة نفسه، ودايما دايما الصح
أخلاقيا، المفروض يكون، الأنفع للمستقبل، الأعدل للحقوق اللي
هي ملخّص الحاجات اللي عايزها الفيلسوف دي، بيبقى فيه تضارب
مصالح بينها وبين فئة ما في المجتمع صغرت أو كبرت على حسب
الظرف. وهؤلاء بيحاربوا دايما الفلسفة، لإن الفلسفة حتغيّر والتغيير
مش من مصلحتهم لإنهم مستفيدين من الوضع الحالي. فكر كده
في الموضوع في ضوء الثورة المصرية في بداياتها مثلا. -الفلسفة
دايما عندها ثورة كامنة فيها- لمَّا يؤمن بيها عدد كافي من الناس
تخرج للنور لكن حتى لو لم يؤمن بيها عدد كافي من الناس بتفضل
موجودة، كامنة، ساكتة. ففي حالة الثورة المصرية على نظام مبارك
القديم دي كل من له مصلحة مع نظام دولة مبارك القديمة، كل من
كان مستفيد من الوضع ساعتها زي ما كان كده بالظبط ماكانش
عايز ثورة، «ماكانش عايز فلسفة»، لإن طول ما مافيش فلسفة بيبقى

الوضع على ما هو عليه وهو المطلوب بالنسباله. وعلى موقف العكس الصريح بيقف الفيلسوف، لو ركن على جنب، لو بقى مش عايز تغيير، مش عايز تعديل، مش عايز «ثورة» يبقى مش فيلسوف ولا حاجة، ولا فيه فايدة تعود على الناس من ورا وجوده بينهم. يختلفوا الفلاسفة في الطريقة آه، لكن بيشتركوا في الرغبة الدائمة في الأحسن والأنبل والأعدل، بيشتركوا في استعدادهم الدائم إنهم طول الوقت يشتبكوا مع مجتمعاتهم لحد ما يحصل اللي هم شايفينه صح، إلى أن يتغيّر الصح على أيدي الفلاسفة اللي جايين بعدهم... وهكذا وهكذا وهكذا.

تفلسفوا تصحّوا.

نُص كِتاب

شـــوف بقه، حتسأل نفسك الكتاب ده عن إيه؟ الكتاب ده إيه؟ هو نص كتاب ليه؟ سيبك من الحاجات دي. ده كتاب و خلاص، لو حسيت كده إن عندك ما يكفي من أسباب ووقت إقراه.

دي مش قصة طبعا.. ولا مناظر! :)

ده كتاب هدفه يأخدك في رحلة ما بعيدة جدًا تلف فيها كتير جدًا وترجع، لنفسك.

مش حتعرف كده من أول ما تبدأ تقرا بس حغشّشـــك عشـــان ماتفضلش حيران.

الكتاب ده عنك أنت شخصيًا.

أحمد العسيلي

دار الشروق
www.shorouk.com

EL Shorouk الشروق
9789770933190
نص كتاب
L.E 28.00